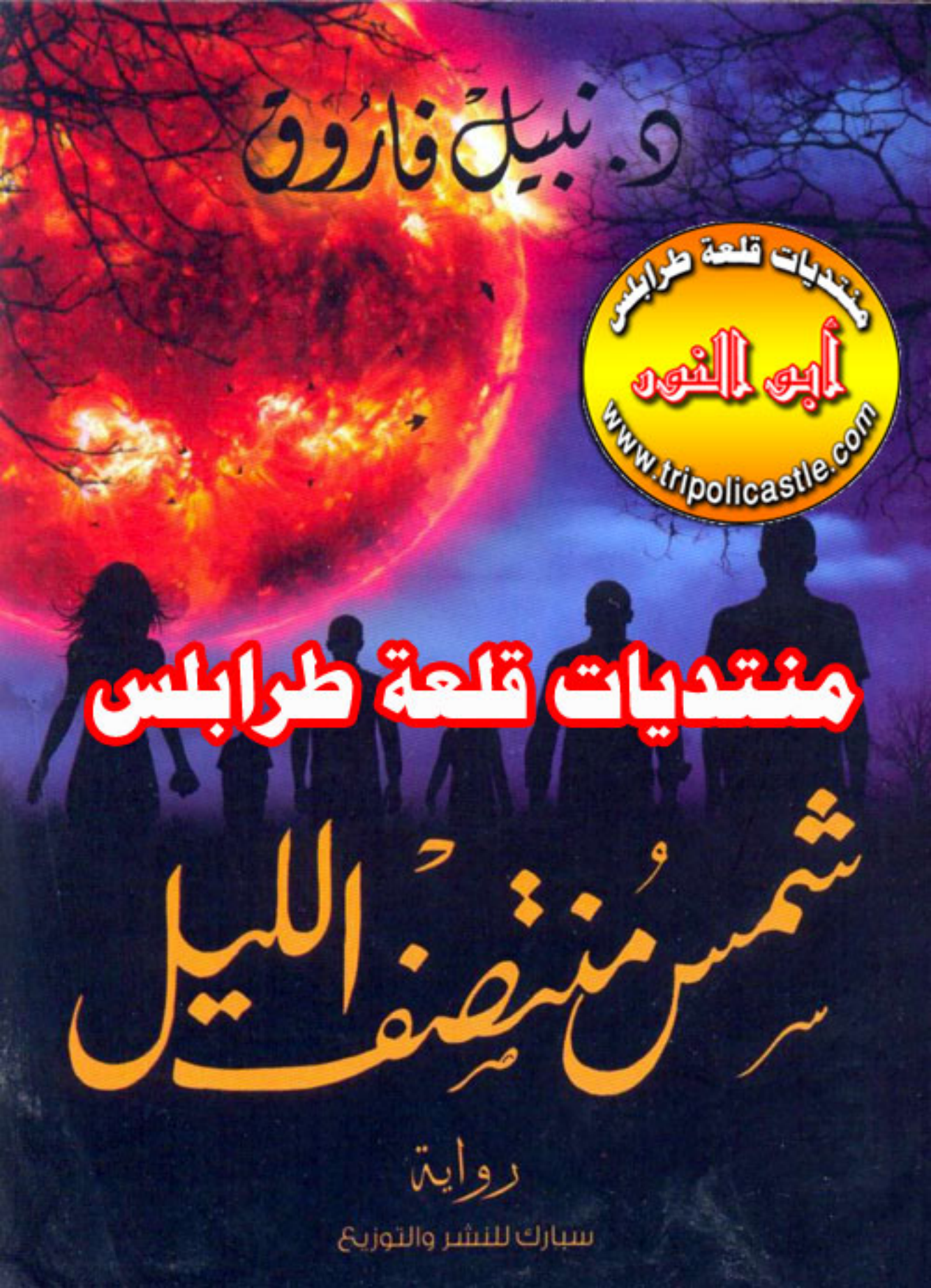

د. نبيل فاروق
منتديات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com
منتديات قلعة طرابلس
شمس منتصف الليل
رواية
سبارك للنشر والتوزيع

منتديات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com

مع مشرق كل شمس، يبدأ يوم جديد.. وسؤال جديد..

كيف سيبدأ اليوم ؟! وكيف سينتهى ؟!

ولكن ذلك اليوم، بدأ بغموض.. وحيرة.. ومفاجأة.. مذهلة..

وتفجّر معه ألف سؤال وسؤال..

كيف اختفى من يستحيل أن يختفى ؟؟؟.. وأين ؟!..

وكيف توالت الأحداث الغامضة المثيرة.. والمخيفة ؟!

ولماذا عاد من يستحيل أن يعود ؟! وكيف ؟!

ومع كل جواب، أشرق ألف سؤال جديد !!

كل هذا عندما أشرقت الشمس..

في منتصف الليل..

د. نبيل فاروق

منتديات قلعة طرابلس

سبارك

الفصل الأول

ارتفعت راية سوداء، على قمة أعلى أبراج مبنى السجن، معلنة أحد تلك الأيام، التى يتم فيها تنفيذ أحكام الإعدام النهائية، وتشاركت الأحوال الجوية مع الموقف، فاكفهرّت السماء، وتلبدّت بالسحب، وبدا وكأنها توشك أن تمطر، بدموع آسفة ...

وعبر ممرات السجن الكئيبة، التى تفوق ظلمتها ذلك الضوء الباهت فيها، والممتزج بقليل من الضوء، الذى يتسلل من نوافذ قليلة، تحول قضبان فولاذية، بينها وبين العالم الخارجى، باتساعه وامتداده...

وفى صمت مهيب، سار ذلك الموكب الصغير...

موكب يقوده مأمور السجن، وخلفه عدد من ضباطه وجنوده، بينهم يسير فى صعوبة (طارق بشير)، المتهم بقتل شخص عادى، لم تكن تجمعه به أية صلة واضحة، وفقاً لتحريات إدارة البحث الجنائى، والذى لم يتم العثور على جثته قط، وإن أكّدت كل الأدلة أنه لم يكن باستطاعة أحد القضاء عليه، سوى (طارق) ... و (طارق) وحده ...

كان واعظ السجن يسير إلى جواره، ويتحدّث إليه بكلمات هادئة، محاولاً أن يستحثه على أن يعترف بجريمته، ويستغفر الخالق عزّ وجلّ فيما حدث، إلا أن (طارق) كان يبدو شارداً، وكأنه لا يسمعه، وعيناه معلقتان بنقطة مجهولة، لا يدرى سواه ماذا يرى عندها ...

وفى تلك الحجرة الرهيبة المخيفة، حيث يقف شخص ضخم الجثة، كث الشارب، إلى جوار حبل المشنقة، الذى يتدلّى من قائم خشبى غليظ، و أسفله مباشرة منصة خشبية، يتوسطها مستطيل واضح، معد بحيث ينفتح فجأة، إثر دفعه من يد ذلك الضخم، لذراع خشبية مائلة إلى جواره ...

وفى آلية، قرأ مأمور السجن حكم الإعدام النهائى، الذى صدر ضد (طارق)، والذى ينتهى بتلك العبارة المخيفة ...

الإعدام شنقاً ...

لم يبد على (طارق) أنه قد سمع حرفاً واحداً مما يقرأه مأمور السجن، وهو يتطلّع فى اضطراب، إلى ذلك الحبل الغليظ، الذى سيسلبه الروح بعد قليل ...

وعلى الرغم منه، استعاد ذهنه عدة ذكريات متفرقة ...

ذكريات بدأت بتلك الليلة، التى كان يجلس فيها وحده، مستمتعاً بالهواء المنعش، فى شرفة منزله الصغير الجديد، يجرع زجاجة مياة غازية مثلّجة، ويتأمل النجوم، التى يندر أو يستحيل أن ترصدها، فى المدن الكبيرة ...

كان ذلك المنزل فى بقعة شبه منعزلة، من تلك المدينة الجديدة، التى لم تعتمر بالسكان بعد، وكان يشعر بارتياح شديد، عندما يقضى فيه يومى إجازته الأسبوعية، بعد العمل الشاق والمستمر، طوال الأيام الخمسة الأخرى المرهقة ...

كان مبعث ارتياحه، إلى جانب الهدوء الشديد، هو بعده عن كل وسائل التكنولوجيا الحديثة، خلال يومى إجازته ...

وهذا ما حرص عليه تماماً ...

لم يضف إلى منزل المدينة الجديدة جهاز تلفاز، أو هاتف، أو شبكة انترنت ...أو حتى مبرد مياه...

شعوره بالارتياح كان يكتمل، وهو يحيا حياة طبيعية، بدائية، تعيده إلى احضان الطبيعة الأم، بكل بساطتها وعفويتها ...

أغلق عينيه فى استمتاع، وهو يستنشق هواء الليل الرطب، و ...

وفجأة، تفجُر ذلك الضوء أمام عينيه ...

كان يغلق عينيه فعلياً، إلا أن ذلك الضوء المباغت كان قوياً، شديد الإبهار، حتى أنه اخترق جفنيه المغلقين، وكاد يحرق مقلتيه دفعة واحدة...

انتفض جسده فى عنف، ولكنه عجز عن فتح عينيه ...

او انه قد خشى هذا تماماً...

لقد كان الضوء ساطعاً، مبهراً، شديد القوة، حتى أنه تصور أنه، لو فتح عينيه، فستشتعلان على الفور، وكأنهما تحدقان فى الشمس مباشرة ...وعلى الرغم منه ... صرخ ...

انطلقت منه الصرخة عفوياً، وجسده ينتفض ...

وينتفض ...

وينتفض ...

لقد بدا له، على الرغم من ذهوله، وكأن الشمس قد خرجت من مسارها فجأة، وهوت امام عينيه مباشرة ...

وفى منتصف الليل ...

رفع ذراعيه، فى محاولة لحماية وجهه وعينيه، وشعر بصفير رهيب، لم تدركه أذناه، بقدر ما أدركه مخه ...

كان يخترق مخه مباشرة، كما لو أنه لا يمر عبر أذنيه ...

ولهذا صرخ مرة أخرى..

وصرخ ...

وصرخ ...

وقبل حتى ان تنتهى صرختة الاخيرة، انتهى كل شئ بغتة ...

تماماً كما بدأ ...

ولوهلة، لم يستوعب عقله ذلك الانقلاب المفاجئ ...

ثم، وفجأة أيضاً، انتفض جسده مرة ثانية فى عنف ...

ولثوان، تواصل شعوره بالخوف من فتح عينيه، ثم لم يلبث أن فتحهما فى بطء وحذر، قبل أن يتسعا عن آخرهما، وهما تحدقان أمامهما فى ذهول ...

لقد كان كل شئ هادئاً ...

للغاية ...

ومرة أخرى، ومع وقع المفاجأة، عاد جسده ينتفض، وشعر بجفاف شديد فى حلقه، ومرارة جعلته يرغب، وبشدة، فى تناول بضع رشفات، من زجاجة المياه الغازية المثلجة، التى احضرها إلى الشرفة، فمد يده إليها، و ...

مرة أخرى، انتفض جسده ...

وهذه المرة، كانت الانتفاضة أعنف ...

وأقوى ...

فالزجاجة، التى تناول منها رشفة مثلجة، منذ دقيقتين، لم تكن مثلجة ...

بل لم تكن حتى باردة ...

كانت، على العكس تماماً، دافئة، وكأنها هناك منذ ساعة على الأقل..

التفت إليها بنظرة مذعورة، وحدّق فيها فى ذهول، ثم لم يلبث أن نقل بصره فى سرعة إلى ساعة يده ...

كانت العقارب تشير إلى الواحدة وتسع دقائق، من بدايات يوم جديد ...

وهذا جعل عينيه تتسعان أكثر، وذهوله يقفز مائة درجة إلى أعلى...

فهذا مستحيل!...

مستحيل تماماً!..

إنه يخرج دوماً إلى الشرفة، قبيل منتصف الليل بدقائق قليلة ...

وهذا ما فعله، فى هذه الليلة ...

ولم يمض على جلوسه وقت قليل، حتى سطعت تلك الشمس العجيبة...

ولم يستغرق سطوعها دقيقة أو يزيد...

فكيف مضى ما يزيد عن الساعة؟!...

كيف؟!..

كيف؟!...

كانت ذاكرته تستعد للانتقال إلى نقطة أخرى، عندما مسّ المأمور كتفه، وهو يقول، فى صوت خافت مشفق:

- ألك مطلب أخير؟!...

استعاد جسده انتفاضته، وهو يلتفت إليه فى بطء، مغمغماً فى صوت متحشرج:

- كلا.

سأله الواعظ فى حنان أبوى:

- هل ستعلن توبتك؟!

صمت (طارق) لحظة، غمغم بعدها فى خفوت:

- أنا برئ.

ربّت المأمور على كتفه مرة أخرى، ثم أشار إلى منفذ الإعدام، الذى أمسك ذراع (طارق)، فى خشونة غير متعمّدة، وبدأ يقيّد معصميه خلف ظهره، ثم انحنى يربط كاحليه فى إحكام...

وعلى الرغم من حساسية الموقف، بالنسبة لشخص يواجه الموت، عادت ذاكرته تنطلق مرة أخرى

ذلك الحادث لم يتكرر مرة ثانية بعدها...

وذكراه لم تفارقه قط...

كل ما خطر بباله، أو حاول اقناع نفسه به، هو أن كل هذا لم يكن حقيقة عاشها، بل مجرّد حلم...

كابوس يقظة، راوده فى لحظة نعاس...

من المؤكّد أنه كذلك...

فما حدث ليس أمراً مفهوماً...

بل، وليس حتى ظاهرة طبيعية...

إنه أمر خارق للمعتاد...

أمر يستحيل حدوثه فى عالم الواقع...

بذل جهداً خرافياً؛ لإقناع نفسه بهذا، وكاد ينجح فى محاولته بالفعل...

لولا ما حدث فى ذلك اليوم...

انتزعه من ذكرياته ذلك الظلام، الذى أحاط بعينيه فجأة، عندما وضع منفذ الحكم، ذلك الكيس الأسود على رأسه، وحتى عنقه...

ومرة أخرى، راح المأمور يتلو الحكم، وامتدت يد منفذ الحكم، تقبض على تلك الذراع الخشبية، فى تحفز واستعداد، منتظراً إشارة المأمور للتنفيذ...

وهنا توقفت ذكريات (طارق) تماماً...

وخلا رأسه من كل شئ، إلا أمر واحد...

إنه يواجه لحظة إعدامه، ويحيا آخر لحظات حياته، وها هو ذا حبل المشنقة، يلتف حول عنقه...

وفى أعمق أعماقه، صرخ:

- أنا برئ.

وقبل أن تكتمل تلك الصرخة فى أعماقه، انتهى المأمور من تلاوة الحكم، وأشار إلى منفذ الإعدام...

وبلا تردُّد، جذب الرجل تلك الذراع فى قوة وحسم.

وانفتحت الكوة المستطيلة، تحت قدميه تماماً...

وهوى جسده...

و...

وارتد الحبل فى عنف...

وفى هذه المرة، كان دور الحاضرين جميعاً، لتتسع عيونهما فى ذهول...

فعندما ارتُد الحبل، كان خالياً...

ولم يكن هناك كن أثر لـ (طارق)...

أدنى أثر.

• • •

الفصل الثانى

انحنى (جمال فتحى)، مدير مباحث العاصمة، يتطلّع فى أمعان إلى تلك الفجوة، التى اختفى داخلها (طارق)، وتفحّص جدرانها ببصره فى توتر، وهو يقاوم تلك القشعريرة الباردة، التى تسرى فى جسده؛ لمجرّد وجوده داخل ذلك المكان، الذى شهد من الموت أضعاف ما شاهده من الحياة، ولقد حاول بقدر استطاعته كتمان تلك القشعريرة فى أعماقه، إلا أنها خدعته، وفرّت عبر صوته، وهو يغمغم:

- لابد من فحص هذه الجدران جيداً.

أجابه (فارس حمدى)، خبير المعمل الجنائى، وهو يتلفّت حوله فى توتر، ويتمنى من أعمق أعماق قلبه أن يعدو خارجاً من حجرة الموت، قبل أن يختطفه غيلة:

- لقد استدعيت أحد خبراء الهندسة المدنية؛ ليتأكّد من عدم وجود فتحات أو مخارج سرية بها.

بدا مأمور السجن شديد العصبية، وهو يقول:

- حفرة الموت هذه لها مدخل واحد، ولا توجد بها أية مخارج سرية، وحتى لو كانت تلك المخارج الوهمية موجودة، فزمن سقوط الرجل، وأنشوطة المشنقة حول عنقه، لم يكن يكفى حتى ليحل الأنشوطة، قبل أن تقتلع عموده الفقرى من عنقه

انعقد حاجبا المفتش (جمال)، وهو يعيد فحص الجدران ببصره، مستعيداً تلك الرواية، التى سمعها من كل شهود الواقعة بلا استثناء...

(طارق) سقط فى الفجوة، أمام أعينهم أجمعين، وهو مربوط المعصمين خلف ظهره، ومربوط الكاحلين فى قوة، وأنشوطة الحبل حول عنقه...

ثم اختفى...

لم يستغرق هذا سوى ثانية أو ثانيتين، ارتد بعدهما الحبل خالياً...

وبقيت الفجوة فارغة...

الكل أجمع على هذا، حتى الشيخ (حسن)، واعظ السجن...

الكل روى رواية واحدة...

ومذعورة....

والكل لم يكن لديه تفسير...

أى تفسير...

حتى الضباط والجنود، الذين بقوا خارج الحجرة، أكّدوا أنهم قد اشتركوا جميعاً فى فحصها، عقب اختفاء (طارق)، وشهدوا بلا استثناء، أنهم رأوه يدخلها، مع مأمور السجن، واثنين من الضباط، والشيخ (حسن)، وهى حجرة ذات مدخل واحد، كانوا جميعا يقفون امامه، ولم يشاهد أحدهم (طارق) يخرج منها بعدها...

ولم يكن له أدنى أثر...

لا داخلها...

ولا خارجها...

وبكل الحيرة والتوتر، غمغم المفتش (جمال):

- ولكن هذا مستحيل!... حتى (هودينى) نفسه، لم يكن باستطاعته أن يفعلها، فى تلك الثوانى المحدودة.

غمغم مأمور السجن، فى صوت ارتجف، على الرغم منه:

- ولكنه حدث.

بسمل الشيخ (حسن) وحوقل، قبل أن يضيف فى خفوت:

- إنه فعل شيطانى.

رمقه (فارس) بنظرة متوترة، ثم عاد يدير عينيه فى الحجرة، قبل أن يقول فى عصبية واضحة:

- والآن... هل يمكننى القيام بعملى؟!

ألقى (جمال) نظرة أخيرة على جدران الفجوة، قبل أن ينهض متمتماً:

- لا بأس.

تمتم بها متنهداً، وأشار إلى الباقين، قائلاً:

- هيا... فلنتركه يعمل وحده.

هتف (فارس) مذعوراً:

- لا... ليس وحدى.

لم يكد ينطقها، حتى شعر بالخجل من نفسه، ومن ذعره وانفعاله، فاستدرك فى سرعة وتوتر:

- ولكن مع فريقى.

لم يحاول احدهم التعليق على عبارته، وإنما أسرعوا جميعاً خارج المكان، تاركين أفراد فريقه ينضمون إليه فى الحجرة، وسار المفتش (جمال) فى خطوات سريعة، إلى جوار مأمور السجن، وهو يدفع أكبر قدر ممكن من الصرامة فى صوته، كمحاولة لإخفاء عصبيته وتوتره:

- سنذيع نشرة بأوصافه كاملة، وسنوزع صوره عبر شبكة الاتصالات، و...

قاطعه المأمور فى عصبية:

- وماذا؟!... أمازلت مصراً على أنه قد فر من حجرة الإعدام؟!...أوّلاً: هذا لم يحدث عبر التاريخ، لا هنا، ولا فى أى مكان آخر من العالم، وثانياً: وهو الأهم، أنه لو فر منها، فسيفر إلى داخل السجن نفسه؛ لأنه لا يوجد أى مخرج لها، إلا إلى السجن، وهذا يعنى أن عليه أن يفر من سجن محكم أيضاً، انطلقت فيه صفارات الإنذار، فور اختفائه... أخبرنى بالله عليك، كيف يمكنه أن يفعل هذا؟!

كان سؤال المأمور منطقياً، وعلى الرغم من هذا، فقد غمغم المفتش (جمال) فى صرامة:

- إنه ليس بساحر.

قال المأمور بنفس العصبية:

- ولم لا؟!... ما رأيناه جميعاً هو نوع من السحر بالفعل.

تسللت العصبية إلى صرامة المفتش، وهو يقول:

- لا يمكننى أن أذكر هذا فى تقرير رسمى.

أجابه المأمور، فى عصبية أشد:

- ولا يمكنك أيضاً أن تتهمنا بالتقصير، أو بما هو أفظع؛ لمجُرد أنك تجهل ما حدث.

مرة أخرى، كان حديث المأمور منطقياً، وربما أكثر مما ينبغى، ولكن عقل (جمال) لم يكن قادراً بعد على استيعاب هذا الموقف العجيب، الذى لم يتخيّل حتى حدوث مثله، ولا فى أبشع كوابيسه...

ولقد كانت حيرته تفوق توتره...

كيف يمكن أن يحدث هذا؟!...

كيف؟!...

الناس لا تختفى بهذه البساطة!!...

ليس فى مكان كهذا على الأقل...

ولكن أى تفسير بخلاف هذا سيبدو أكثر استحالة! فلكى يفر محكوم عليه بالإعدام، من داخل حجرة الغعدام، فى قلب سجن حصين، عليه أن يرشى الجميع، بدءاً من المأمور، وحتى أصغر جندى، بما فى ذلك واعظ السجن نفسه...

وهذا مستحيل تماماً!!..

ما التفسير إذن؟!...

شعر بإرهاق شديد فى ذهنه، من كثرة ما حاول تفسير الأمر، واقناع نفسه بإمكانية حدوثه، بأية وسيلة كانت، فرفع يده إلى رأسه، وهو يغمغم:

- هل يمكننى تناول فنجان من القهوة؟!.

اجابه المأمور، دون أن يفقد عصبيته:

- بالتأكيد.

فى نفس الوقت، الذى راح يرتشف فيه قهوته، كان (فارس) وفريقه يفحصون كل شبر فى حجرة الموت، وجدران تلك الفجوة، التى لا يهبط فيها فى المعتاد سوى الموتى...

كان كل شئ فى المكان، يثير فى نفسه ونفس فريقه قشعريرة الموت، حتى خيُل إليهم أنهم يشمون رائحته فيما يحيط بهم من هواء! لذا فقد راحوا يعملون فى سرعة، فى محاولة لإنجاز عملهم، فى أسرع وقت ممكن...

كانت الحجرة تحوى عدداً هائلاً من البصمات، حتى أن (فارس) تساءل: كم من البشر انتهت حياتهم فيها، على مر السنين..

أما فجوة الموت، فعلى العكس من الحجرة، كانت تحوى بصمات قليلة للغاية، ولقد بدا له هذا أمراً طبيعياً، فمعظم من يسقطون فيها، لا يملكون لمس أحد جدرانها أبداً، حتى آخر نفس لهم..

الشئ الذى ضاعف من توتره، هو أن غموض القضية سيجعله مضطراً لإجراء كل الفحوص، والحصول على كل أنواع الأدلة، من بصمات، وحتى عينات الحمض النووى...

وعلى الرغم من رغبته ورغبة فريقه، فقد استمر عملهم ما يقرب من ست ساعات كاملة، غابت خلالها الشمس، وبدا المكان مع غيابها أكثر رهبة وكآبة...

وفى توتر مرهق، غمغم أحد الرجال:

- هل تظنون أن أرواح الموتى تحوم هنا طوال الوقت؟!

تلفت (فارس) حوله فى عصبية، وهو يجيبه:

- أتعشم ألا يكون هذا صحيحاً! فمعظم من قضوا نحبهم هنا، من عتاة القتلة والسفاحين.

كلماته هذه جعلتهم جميعاً يتلفتون حولهم فى خوف، قبل أن يتساءل أحدهم فى عصبية:

- ماذا تبقى امامنا؟!

أجابه (فارس)، محاولاً التماسك:

- سنجمع عينات من أية سوائل، على جدران الفجوة، ثم ننصرف، وغداً يحضر الخبير الهندسى، لفحص جدرانها.

تمتم الرجل، بنفس العصبية:

- عظيم.

كانوا يشارفون على الانتهاء من عملهم، عندما غمغم أحد الضباط، الذين يقفون خارج المكان:

- ألن ينتهوا أبداً.

غمغم زميله:

- رويدك يا رجل.... لا يمكن أن يواصلوا، حتى منتصف الليل.

لم يكد ينطقها، حتى سطع فجأة ذلك الضوء المبهر، على نحو شديد السطوع، من داخل حجرة الإعدام...

وامتزج سطوعه بصرخات ألم ورعب...

بلا حدود...

• • •

الفصل الثالث

" إنها أرواح الموتى "...

هتف (فارس) بالعبارة، على نحو هستيرى عنيف، ضارباً الهواء بذراعيه، وكأنما يدرأ عن نفسه هجوماً ضارياً، من وحش أسطورى مفترس، حتى أن فريق التمريض اضطر إلى الإمساك بذراعيه وساقيه فى قوة، حتى يتمكن الطبيب من حقنه بعقار مهدئ...

وفى توتر لا محدود، وقف المفتش (جمال) يراقب ما يحدث، معقود الحاجبين، يتابع ردود فعل (فارس)، الذى أحاط الأطباء عينيه بضمادات مهدئة، والذى راح جسده يهدأ تدريجياً، ثم لم يلبث أن راح فى نوم عميق، فتنفس الجميع الصعداء، وغمغم (جمال) فى عصبية:

- ماذا عن الباقيين؟!

انتزع الطبيب قفازيه المطاطين، وهو يجيب:

- نحن نجهل فى الواقع ماذا أصابهم؛ فجميعهم فى حالة هستيرية غير طبيعية، وأعينهم ملتهبة على نحو عجيب، كما لو أنهم قد تعرضوا لمصابيح قوية.

أومأ (جمال) برأسه متفهماً، وغمغم:

- يمكنك أن تقول هذا.

تطلّع إليه الطبيب مستفسراً، فالتقط (جمال) نفساً عميقاً، أطلقه فى زفرة شديدة التوتر، قبل أن يسأل:

- ومتى ستشفى أعينهم فى رأيك؟!

هزّ الطبيب رأسه نفياً، وهو يغمغم:

- مادمت أجهل السبب، فمن العسير إجابة هذا السؤال.

ولم يحاول (جمال) مناقشته...

فما من أحد يعرف السبب!!..

أو يعلم حتى ماذا حدث!!..

كل الشهود أشاروا إلى ضوء مبهر، انبعث من الفجوة بغتة...

ضوء شديد السطوع، كما لو أن الشمس قد سقطت فجأة، فى فجوة الموت، وانطلقت فى عيونهم أجمعين...

الضباط والجنود خارج الحجرة رأوا الضوء المبهر، يتفجَّر من كل فتحة ممكنة، وعلى الرغم من أنه لم يرتبط سوى بصفير عجيب، ضرب عقولهم مباشرة، إلا أنهم تصوَّروا أن انفجاراً عنيفاً قد حدث هناك، فاندفعوا نحو الحجرة، وعندما فتحوا بابها، بهرهم ذلك الضوء الرهيب، وأجبرهم على إغلاق أعينهم، و...

ولا أحد يدرى بعدها ماذا حدث...

عندما وصل المأمور إلى المكان، كان ضباطه ذاهلين، حتى أنه استغرق ثلاثين ثانية؛ لانتزاعهم من ذهولهم هذا...

ولم يكن هناك ضوء...

أى ضوء...

ولم يكن هناك حتى صراخ...

كان الكل ذاهلاً، ملتهب الأعين، فى حين كانت الحجرة صامتة، هادئة، بضوئها الخافت، وجدرانها الكئيبة، وتلك التركيبات الخشبية فى منتصفها، والتى تمنحها مشهداً مخيفاً للغاية...

وبسرعة، تم نقل الجميع لإسعافهم...

(فارس)، وفلايقه، والضباط، والجنود...

وفى دقة، تمت إعادة فحص الحجرة..

لم يكن هناك أى مصدر للضوء، سوى المصباح الفردى، المتدلى من السقف، والذى ظل سليماً، يعمل بكل بكفاءة...

وهذا يضع لبنة جديدة، فى هذا اللغز الغامض...

العجيب...

والمخيف...

كل هذا دار فى خلد (جمال)، وهو يغادر المستشفى، عائداً إلى مكتبه، فى مديرية الأمن...

طوال حياته، كان من أشهر رجال البحث الجنائى فى (مصر)...

لم يعجز عن حل قضية واحدة...

حتى القضايا، التى يحار فيها زملاؤه، كانوا يسندونها إليه، ثقة من الجميع فى أنه سيكشف غموضها، ويحل ألغازها، إلى حد أن زملاءه قد أطلقوا عليه اسم (شيرلوك هولمز) (مصر)

وها هو ذا يقف الآن عاجزاً...

ولأوَّل مرة...

وليس عاجزاً فحسب، بل وحائراً أيضاً...

فلأوَّل مرة فى حياته، يواجه لغزاً بلا تفسير...

على الإطلاق...

ورؤساؤه بالطبع ينتظرون منه أن يواصل سيرته، ونجاحاته المعتادة، فى كشف ما استغلَّق من ألغاز، غير متصوِّرين أنه اليوم أمام لغز الألغاز...

قطع أفكاره رنين الهاتف الداخلى لمبنى المديرية، فالتقط سمّاعته بحركة آلية، مغمغماً:

- ماذا هناك؟!

أتاه صوت الرقيب (أحمد)، المسئول عن مكتبه، وهو يقول بآليته المعتادة:

- هناك رجل يصّر على مقابلتك شخصياً يا باشا.

أجابه (جمال)، فى حدة لم يتعمدّها:

- لن أقابل أحداً اليوم.

واصل (أحمد) بنفس الآلية:

- لقد طلب منى إبلاغ سيادتك أمراً، ولتقبل أو ترفض مقابلته بعدها.

بدا عصبياً، وهو يسأل:

- أى أمر هذا؟!

صمت (أحمد) لحظات، وبدا مما نقلته سمّاعة الهاتف إلى (جمال) أنه يستمع إلى ذلك الشخص، قبل أن يجيب:

- يقول: إن لديه معلومات عن الضوء.

سرت قشعريرة عجيبة فى جسد (جمال)، فور سماعه الكلمة الأخيرة، وبلا وعى، قبضت أصابعه على سمّاعة الهاتف فى قوة، وهو يهتف:

- الضوء؟!

عجز لسانه عن النطق بعدها لحظات، تساءل (أحمد) خلالها، بنفس الآلية:

- هل أصرفه يا باشا؟!

بدا (جمال) شديد الانفعال، وهو يهتف:

- بل احضره فوراً.

لم يستطع تمالك نفسه، بعد أن وضع سمّاعة الهاتف الداخلى، فنهض من خلف مكتبه واتجه نحو الباب، وكانه يتعجّل وصول زائره الغامض، وعقله يكاد يلتهب، من فرط تساؤلاته...

ماذا يعرف ذلك الزائر عن الضوء؟!..

إن شيئاً من هذا لم ينشر أبداً...

بل ولم يشر إليه مخلوق واحد...

فكيف علم؟!...

كيف؟!...

وهل يعنى بالفعل ذلك الضوء الساطع، الذى أصاب عيون (فارس) وفريقه، أم أن حديثه عن ضوء آخر؟!...

بدا له أنه استغرق دهراً فى تساؤلاته، على الرغم من أن (أحمد) لم يستغرق سوى دقائق ثلاث، حتى يصعد بالرجل، وما أن دق باب المكتب، حتى فوجئ بالمفتش (جمال) يفتحه فى سرعة، فتراجع فى دهشة، ولاحظ أن (جمال) لم يلق عليه نظرة واحدة، وإنما ركّز بصره على وجه ذلك الزائر...

كان رجلاً فى منتصف الأربعينيات من عمره، وخط الشيب فوديه، فمنحه مظهراً وقوراً، وإن بدا وجهه شاحباً على نحو ما...

ولقد تطلّع إلى عينى (جمال) مباشرة، دون أن يطرف له جفن، فبادره هذا الأخير قائلاً، وهو يفسح له الطريق:

- تفضل.

دلف الرجل إلى المكتب فى هدوء، يوحى بانه ليس من ذلك الطراز، الذى اعتاد خشية الشرطة أو السلطة، وتساءل (أحمد) بآليته:

- أية خدمة أخرى يا باشا... هل انتظر حتى...

فاجأه ان أغلق (جمال) الباب فى وجهه، وكأنه لا يراه أو يسمعه، فغمغم بكل دهشته:

- ماذا فعلت؟!

أما (جمال)، فقد قاد زائره إلى المقعد المقابل لمكتبه، ثم دار ليجلس على مقعده خلفه، وهو يسأله فى لهفة، لم يحاول اخفاءها:

- ماذا تعرف عن الضوء؟!

ابتسم الرجل ابتسامة خفيفة، وكأنما يسعده أن أثار لهفة وفضول (جمال) إلى هذا الحد، ثم قال فى رصانة:

- دعنى أقدِّم لك نفسى أوّلاً... أنا الأستاذ الدكتور (رأفت فهمى)... أستاذ النسبية الحديثة، فى جامعة (الثورة).

قال (جمال) بنفاد صبر:

- تشرفنا... والآن ماذا لديك عن الضوء؟!

حافظ الرجل على ابتسامته الهادئة، وهو يقول:

- ذلك الضوء يتفجَّر فجأة، دون مصدر واضح، ويغشى العيون والأبصار، و...

قاطعه (جمال) فى توتر:

- نعم... نعم... إننا نتحُدث عن الضوء نفسه، وأنا أعرف حالياً

ما يفعله... السؤال هو: ما ماهيته بالضبط؟!

اعتدل الدكتور (رأفت)، وسرى فى هدوئه شيئاً من التوتر، وهو يقول:

- فليكن... الواقع أن لى تلميذ، ويدعى...

كان (جمال) ينصت إليه بكل اهتمامه، ويرهف سمعه جيداً، و...

وفجأة، سطع ذلك الضوء المبهر فى الحجرة...

فى منتصفها تماماً...

وكان كطبيعته، شديد السطوع والإبهار، حتى أن (جمال) قد اضطر إلى إغلاق عينيه، وهو يصرخ:

- لا... ليس هنا.

وفى أعمق أعماق عقله، انطلق ذلك الصفير...

وصرخ عقله...

وصرخ...

وصرخ...

ثم فجأة، انتفض جسده كله، مع لمسة على كتفه، جعلته يفتح عينيه عن آخرهما، ليحُدق فى وجه الرقيب(أحمد)، والذى شديد الذعر، وهو يسأله:

- أأنت بخير يا باشا؟!

حدَّق فيه (جمال) لحظة أخرى، ثم نقل بصره إلى ما خلفه، حيث كانت الحجرة مكتظة بعدد من الضباط والجنود، من مختلف الرتب، وكلهم يتطلَّعون إليه فى مزيج من التوتر والخوف...

ولم يكن هناك ضوء ساطع فى الحجرة... ولا أى ضوء...

وكان زائره قد اختفى...

تماماً.

• • •

الفصل الرابع

" مستحيل!!... "...

ردَّد (جمال) العبارة عدة مرات، وهو يدور فى حجرته بكل توتره، وحوله وقف زملاؤه صامتين، لا تقل حيراتهم عن حيرته، وإن لم يشاركوه عملية التفتيش، التى أجراها للمرة العاشرة، قبل أن يهتف فى عصبية:

- لا يوجد أدنى أثر له... وهذا مستحيل!... ألم توصله بنفسك إلى هنا يا (أحمد)... أين ذهب إذن؟!

قلب (أحمد) كفيه فى حيرة، وهو يغمغم:

- من هذا الذى أوصلته يا باشا.

هتف به (جمال) بكل عصبية:

- ذلك الرجل، الذى طلب مقابلتى شخصياً... ألا تذكره؟!... الدكتور (رأفت فهمى)... الأستاذ بجامعة (الثورة)... حدث هذا منذ أقل من نصف الساعة، ومن المستحيل ألا تذكره.

تضاعفت الحيرة فى وجه الرقيب (أحمد) وعينيه، وبدا مضطرباً مرتبكاً، فى حين انبرى أحد الضباط، قائلاً:

- الواقع أنه لم يكن هناك أى زوَّار يا سيادة المفتش... إننا حتى لم نكن نعلم أنك فى مكتبك... لم يرك أحد، عند وصولك إلى هنا.

حدَّق (جمال) فى وجوههم بدهشة مستنكرة، قبل أن يهتف فى حدة:

- أى عبث هذا... لقد وصلت مكتبى فى الثالثة والربع تقريباً، وبعدها بقليل، أخبرنى (أحمد) أنه هناك من يرغب فى مقابلتى، ولم أكن واهماً، عندما استقبلت أستاذ جامعة (الثورة) هذا هنا، قبل أن يسطع ذلك الضوء، و....

بتر عبارته بغته، عندما شاهد تلك النظرة المشفة فى عيونهم، والممتزجة بحالة من الحيرة والارتباك،وادهشته أكثر اتساع عينى الرقيب (أحمد)، الذى نظر فى ساعته، قبل أن يرفع عينيه إليه فى ارتياع، جعل (جمال) يدير بصره فى حركة غريزية إلى ساعة الجدار، و...

واتسعت عيناه عن آخرهما...

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية وست وأربعين دقيقة فحسب...

وكان عقارب الثوانى يتحرك، وليس ثابتاً...

وفى صوت غلبته الدهشة، غمغم (جمال):

- هذه الساعة ليست...

مرة أخرى بتر عبارته، مع تزايد نظرة الإشفاق فى العيون، فتمتم أحد الضباط فى حذر:

- إنها مضبوطة يا سيادة المفتش.

شعر (جمال) برأسه يدور، وبعجزه عن الوقوف على قدميه، فمد يده يحاول الإمساك بأى شئ، قبل أن يسقط أرضاً، فأسرع بعض ضباطه، مع الرقيب(أحمد) للإمساك به، وهو يردِّد ذاهلاً:

- مستحيل!..

لم يستطع استيعاب الأمر قط...

لقد وصل إلى مكتبه فى الثالثة والربع...

ليس لديه أدنى شك فى هذا...

ولقد أحضر إليه الرقيب (أحمد) ذلك الرجل بنفسه، حوالى الثالثة والنصف...

فكيف لا يذكر هذا؟!...

وكيف لم يره أحد إلى مكتبه، وقد ألقى التحية على نصف الموجودين، وهو فى طريقه إلى المكتب؟!...

بل كيف عاد به الزمن إلى الوراء؟!...

كيف؟!...

كيف؟!...

كاد عقله يلتهب، من شدة حيرته، وغموض الموقف، ثم لم يلبث أن تذكَّر شيئاً هاماً، فهتف:

- حتى ولو لم يرنى أحدكم أدخل مكتبى، فمن المؤكَّد أن وصولى إلى المبنى قد تم تسجيله عند المدخل.

أجابه أحد الضباط، فى حذر مشفق، وهو يلتقط سمَّاعة الهاتف الداخلى:

- هذا أمر يمكن التيقن منه.

أدار قرص الهاتف برقم داخلى، وما أن سمع صوت محدثه، حتى سأله فى صرامة، غلب عليها توتره:

- متى وصل العقيد (جمال) إلى مكتبه بالضبط؟!

انعقد حاجباه فى شدة، وهو يستمع إلى الجواب عبر الهاتف، ثم سأل، فى مزيج من صرامة أكثر، وتوتر أكبر:

- أأنت واثق من هذا؟!

بدا من ملامحه أن الجواب قد صدمه، فسأله (جمال) فى عصبية:

- بم أجاب؟!

ابعد الضابط سمّاعة الهاتف عن أذنه، وهو يجيب فى حيرة كبيرة:

- بأنك لم تصل بعد يا سيادة المفتش.

اتسعت عيون الجميع فى ذهول، فاز فيه (جمال) بالنصيب الأكبر، وهو يقول فى عصبية بالغة:

- ولكن هذا مستحيل!.

ثم وضع كفه على وجهه، وراح يبذل جهداً رهيباً فى أعماقه؛ للسيطرة على مشاعره، افساح مجال لعقله؛ لتحليل الموقف، ومحاولة تفسيره...

الكل يؤكّد أنه لم يصل مكتبه على نحو طبيعى...

ولم يستقبل أى زائر أيضاً..

ولكنه هنا... فى مكتبه..

هذه هى الحقيقة الوحيدة المؤكّدة....

كان يعتصر ذهنه فى شدة، عندما غمغم أحد الضباط فى حذر:

- ربما تحتاج إلى بعض الراحة أيها المفتش، و...

قاطعه (جمال) فى حزم محنق:

- كُلا.

ثم أعتدل فى مجلسه، وبدا وكأنه قد استعاد تلك الشخصية الحازمة، التى عرفه الجميع بها، وهو يقول بلهجة آمرة:

- أريد ملف قضية (طارق بشير)... فوراً.

تبادل الضباط نظرة متوترة، قبل أن يغمغم احدهم، فى حذر مشفق:

- ولكنك تتولاها بالفعل يا سيادة المفتش.

أجابه فى صرامة، وهو ينهض من مقعده، ويعود إلى ما خلف مكتبه، وكأنما تجاوز ذلك الموقف كله:

- لست أقصد قضية اختفائه فى السجن...أريد ملف القضية التى أدين فيها... قضية القتل

أجابه آخر، فى حذر أكثر:

- لقد صدر الحكم النهائى فيها، و...

صاح فيه (جمال) فى حدة:

- أريد ملفها على مكتبى فوراً.

ثم لوّح بذراعه كلها، مستطرداً:

- ولا أريد أحداً مكنم هنا.

بدأ الجميع يغادرون الحجرة على عجل، ولكنه استوقف أحدكم فى حزم:

- ابق أنت يا (سامى).

تردّد الرائد (سامى رضوان) لحظة، ثم أطاع الأمر، وانتظر حتى انصرف الباقون، ثم أغلق الباب خلفهم، وما أن فعل، حتى نهض (جمال) من خلف مكتبه، وقال وهو يدور حوله:

- هذه القضية غير طبيعية يا (سامى)، وكل خطوة فيها محاطة بكم هائل من الغموض، يحتاج إلى إعادة ترتيب أوراقها.

غمغم (سامى) فى حذر:

- كما تأمر يا سيادة المفتش.

رمقه (جمال) بنظرة صارمة، ثم تابع:

- راجع معى الوقائع منذ البداية، وستجد أن غموضها عجيب بالفعل... رجل يصل إلى حجرة إعدام ممكنة، داخل سجن شديد الإحكام، ويتم تنفيذ حكم الإعدام فيه بالفعل، ولكنه يختفى، دون أن يترك خلفه أدنى أثر.... وعندما يبدأ جمع الأدلة من المكان، تسطع فيه شمس عجيبة، يصاب الكل بعدها بالتهاب جفون غريب، وبحالة من الذعر، لم أر لها مثيلاً من قبل.

بدأ (سامى)، يتجاوب معه، وهو يقول:

- أمور عجيبة بالفعل.

تابع (جمال)، وكأنه لم يسمعه:

- ثم ذلك الذى حدث هنا.

استعاد (سامى) توتره وتردده، وهو يلقى عليه نظرة حذرة، لم يبال بها (جمال)، وهو يواصل:

- شخص زارنى فى مكتبى، وعرّف نفسه بأنه أستاذ جامعى، فيما وصفه بالنسبية الحديثة، ثم يسطع ذلك الضوء المبهر، الذى وصفه رجال المعمل الجنائى، ويختفى بعدها الرجل، ويعود بى الزمن نصف ساعة تقريباً إلى الوراء... كيف يمكنك أن تفسّر هذا؟!

تمتم (سامى)، فى حذر أكبر:

- إرهاق عمل.

التفت إليه (جمال) بنظرة حادة، وهو يقول فى غضب:

- أهذا ما علمتك إياه؟!

تردّد (سامى)، دون أن يحر جواباً، فتابع (جمال) بنفس الغضب:

- لقد اخترتك؛ لأننى أعتبرك من أفضل تلامذتى، وأذكر جيداً أننى قد أخبرتك عن تلك القاعدة، التى وضعها (آرثر كونان دويل)، فى روايات (شيرلوك هولمز)، والتى تقول: "إنه عندما تستبعد المستحيلات؛ فإن ما يتبقى هو الحقيقة، مهما بلغت غرابتها"

تردّد (سامى) لحظة أخرى، قبل أن يغمغم فى حذر:

- هذا يتوقف على مفهوم (المستحيلات) يا سيّدى.

أشار (جمال) بذراعه، وهو يقول:

- أعلم أنك تشير إلى ما أخبرتكم به، عن الزائر الغامض، ومشكلة العودة بالزمن، ولكنه، وعلى الرغم من عجزكم عن تصديقه أو فهمه، فهو بالنسبة لى ليس من المستحيلات؛ لأنه امر عشته بنفسى، وكان من الممكن أن أقنع بأنه مجرّد ضغط عصبى، وإرهاق فى العمل، لولا أمر واحد.

ثم أشار بسبّابته، مردفاً فى حزم:

- أن نظرية الإرهاق فى العمل، لا يمكن أن تفسّر وصولى إلى مكتبى، دون أن يعلم شخص واحد بهذا، ودون أن يسجّل مراقب المدخل وصولى.

ارتفع حاجبا (سامى) لحظة، ثم عادا ينخفضان، وهو يقول فى حزم:

- أنت على حق، يا سيادة المفتش.

بدا الارتياح على وجه (جمال)، وهو يقول:

- عظيم... دعنا إذن نعتبرها نقطة انطلاق.

لم يكد ينهى عبارته، حتى وصل الرقيب (أحمد)، حاملاً ملف قضية (طارق بشير)، فالتقطه منه (جمال) فى لهفة، وعاد إلى ما خلف مكتبه، ليطالعه فى سرعة ولهفة...

وطوال مطالعته للملف، لم ينطق (سامى) حرفاً واحداً...

كانت كلمات أستاذ فى فن البحث الجنائى، قد أيقظت كومة من التساؤلات فى نفسه، وخاصة مع حقيقة وصول أستاذه إلى مكتبه، دون المرور بالأساليب التقليدية...

ثم هناك ذلك الضوء الساطع، الذى يتحُدث عنه طوال الوقت، والذى لم يشعر به، أو يرصده شخص واحد، فى المبنى كله!!...

لقد أدركوا وجوده فى حجرته، عندما سمع الرقيب (أحمد) جلبة داخل الحجرة، ففتح باباها، ليفاجأ بالعقيد (جمال) داخلها، فى حالة أشبه بالذهول...

" انظر... "..

قطعت كلمة (جمال) حبل أفكاره، فالتفت إليه متسائلاً، وسمعه يكمل فى حماس:

- (طارق) أيضاً أشار إلى ذلك الضوء الساطع، الذى رآه رجال المعمل الجنائى فى حجرة الإعدام، والذى سطع هنا أيضاً، ولكن أحداً لم يلق لإشارته هذه بالاً.

تردُد (سامى) لحظة، ثم قال فى خفوت:

- ولكن أحداً لم ير ذلك الضوء هنا، يا سيادة المفتش.

رفع (جمال) عينيه إليه بحركة حادة، وقال فى عصبية:

- ماذا تعنى؟!... لقد كان ضوءاً شديد السطوع، ومن المستحيل ألا يرصده أحد هنا.

قلب (سامى) كفيه فى حيرة، موحياً بإجابته، فانعقد حاجبا (جمال) فى شدة، وقال فى عصبية أكثر

- لا تقل لى أن أحداً لم يشعر بكل ذلك الضوء!!... لقد كان شديد السطوع، حتى أنه من المستحيل الا يرصده أحد.

غمغم (سامى):

- ولكن هذا ما حدث بالفعل.

تراجع (جمال) فى مقعده، وبقى محدِّقاً فى وجه (سامى) لحظات، قبل أن يتمتم، وكأنه يوُجه الحديث إلى نفسه:

- ولكن كيف؟!...

عادت حيرته تلتهم عقله فى عنف...

لقد كان الضوء ساطعاً، أكثر من أى ضوء شاهده فى حياته...

كان وكأن الشمس نفسها قد اشرقت فى قلب حجرة مكتبه...

وأمام وجهه مباشرة...

إنه لسعيد الحظ، أن يواجه هذا، ثم لا يصاب بنفس الالتهابات، التى أصابت أعين أفراد فريق المعمل الجنائى...

وحتى هذا، لا يجد له سبباً!!...

لماذا هم، وليس هو؟!..

لماذا؟!...

مرة أخرى، وقبل أن يستغرق فى تساؤلاته، قاطعه صوت طرقات على باب مكتبه، أعقبها دخول أحد ضباطه، وهو يقول فى حذر:

- لقد قمنا بعمل تحريات سريعة، عن ذلك الشخص، الذى

قلت: إنه قد زارك فى مكتبك يا سيادة المفتش، على الرغم من أن...

قاطعه (جمال) فى لهفة عصبية:

- وما الذى توصّلتم إليه؟!

أجابه فى تردُّد:

- لم نجد أستاذاً جامعياً بنفس الأسم، ولا حتى فرع علمى، يعرف بأسم النسبية الحديثة، ولكن الاهم...

تردُّد الضابط لحظة، وكأنما يعجز عن الاستمرار، فتهتف به (جمال) فى عصبية:

- ما الاهم يا رجل.

واصل الضابط تردُّده لحظة، ثم اجاب فى سرعة:

- أنه لا توجد جامعة، لا هنا ولا فى أى بلد عربى آخر، تحمل اسم جامعة (الثورة).

وكانت مفاجاة جديدة...

وعنيفة.

• • •

الفصل الخامس

دق مدير الأمن سطح مكتبه بقبضته فى قوة، وهو يقول للمفتش (جمال) فى صرامة غاضبة:

- هذا الامر غير قابل للمناقشة أيها العقيد... سيادة الوزير قرأ التقارير كلها بنفسه، وقرّر منحك إجازة إجبارية، حتى تسترد قدرتك على التفكير السليم.

بدا (جمال) شديد التوتر، وهو يجيبه:

- أعلم أن الأمر يبدو أشبه بالجنون، ولكن القضية كلها تتسم بهذه الصفة، وليس منذ اختفاء (طارق بشير) فحسب، وإنما أعنى منذ بدايتها؛ فقد راجعت ملف القضية، التى أدين فيها (طارق)، فوجدت الغموض يحيط بها، منذ اللحظة الاولى.

قال مدير الأمن، فى صرامة أكثر:

- القضية تم حسمها فى ساحة المحكمة، والرجل صدر ضده حكماً نهائياً.

أشار (جمال) بيده، قائلاً فى توتر:

- على الرغم من عدم العثور على جثة القتيل (عادل إبراهيم).

هتف مدير الأمن فى غضب:

- ولكن الادلة كلها كانت تثبت مصرعه...الدماء فى حجرة مكتبه، واختفائه التام و...

لم يكن هذا يتفق مع القواعد الرسمية، ولا حتى مع قواعد اللياقة، ولكن (جمال) قاطعه فى توتر:

- كلها أدلة ظرفية.

قال مدير الأمن فى حدة:

- ليس هذا شاننا... نحن سلطة تنفيذية فحسب، نلقى القبض على المتهم، ونقدّمه للعدالة، وهى تصدر الحكم، ثم تعود إلينا مهمة تنفيذه.

قال (جمال)، فى شئ من الصرامة:

- وماذا حدث عند التنفيذ؟!

صمت مدير الأمن تماماً، عند هذه النقطة، وبدا شديد التوتر، مما جعل (جمال) يتابع، وبنفس اللهجة:

- اختفى المحكوم عليه، داخل حجرة مغلقة، ليس لها سوى مخرج واحد، وعلى بابها تقف دستة من الجنود والضباط.

قال مدير الأمن فى عصبية:

- هناك تفسير لهذا حتماً.

أجابه (جمال) فى سرعة:

- وهذا ما أبحث عنه بالفعل.

انعقد حاجبا مدير الأمن فى غضب، وهو يقول فى صرامة حادة:

- ليس بهذه التقارير الخزعبلية.

ثم مال ليستند بقبضتيه على سطح مكتبه، مستطرداً،ولهجتة تزداد حدة:

- لسنا نخرج هنا فيلماً من أفلام الخيال العلمى... هناك تقارير رسمية، تقدّم للمسئولين فى الوزارة، وللنيابة والقضاء، ولست مستعداً لتقديم تقرير كهذا، لكل تلك الجهات.

حاول (جمال) أن يسيطر على أعصابه وانفعالاته، وهو يقول:

- كيف تفسّر إذن اختفاء جثة (عادل إبراهيم) من مكتبه، فى الطابق العاشر، من بناية تطل على أكبر شوارع (القاهرة)، بعد أن أقر كل الشهود أنه كان فى مكتبه، عندما دخل إليه (طارق)، ولم يغادر أحدهما المكتب، الذى يفضى بابه الوحيد إلى ساحة الشركة بكل ما فيها من عملاء وموظفين، حتى اكتشاف الأمر.

قال مدير الأمن:

- ربما له شريك آخر، أخرج الجثة من النافذة.

كانت لهجة (جمال) مستنكرة، وهو يقول:

- من نافذة تطل على الشارع، فى وضح النهار.

تسلّل شئ من الحيرة إلى ملامح مدير الأمن، قبل أن يستعيد حدته وصرامته، قائلاً:

- القضاء وجده مذنباً.

اندفع (جمال)، قائلاً:

- نحن والقضاء ارتكبنا خطئاً فادحاً، عندما اتهمنا (طارق)، فقط لأنه لم يكن هناك متهم سواه... كان ينبغى أن نولى حديثه شيئاً من الاهتمام، على الرغم من غرابته.

ضرب مدير الأمن سطح مكتبه براحته، قائلاً:

- النيابة رأت أن أقواله العجيبة، لم تكن سوى محاولة منه؛ لإدعاء الجنون، حتى يفلت من حبل المشنقة، ولكن الطب الشرعى أثبت سلامة قواه العقلية.

مال (جمال) نحوه، وقال فى حزم:

- ولكن ماذا لو أنه على حق؟!

حدّق فيه مدير الأمن لحظات فى دهشة، قبل أن يقول فى عصبية:

- لم يعد هذا يهم... لقد سبق السيف العزل، وأصدر القضاء حكمه النهائى.

اعتدل (جمال)، قائلاً بنفس الحزم:

- التطوّرات الجديدة كانت تحتم إعادة فتح ملف القضية.

ضرب مدير الأمن سطح مكتبه بقبضته مرة أخرى، وهو يقول فى حزم صارم:

- كُلا.

ثم اعتدل، مستطرداً بكل الصرامة:

- اعتبر نفسك موقوفاً عن العمل، منذ هذه اللحظة...اذهب إلى منزلك، ولا تعد إلا عندما يقرّر الأطباء أنك قد استعدت قدرتك على التفكير السليم.

تطلّع إليه (جمال) فى ضيق، مدركاً انه من غير المجدى مواصلة النقاش، فاستدار يغادر حجرة مكتبه، فى خطوات سريعة عصبية، ووجد (سامى) فى الممر المقابل لها، يسألع فى قلق:

- ماذا حدث؟!

أجابه دون أن يتوقف:

- تحوّل الأمر، من إجازة إجبارية، إلى إيقاف عن العمل.

ارتفع حاجبا (سامى) فى دهشة فزعة، وهو يلحق به، مغمغماً:

- هل تسمح لى بمصاحبتك يا سيادة المفتش؟!

لم يجب (جمال)، فواصل (سامى) سيره السريع إلى جواره، حتى

غادرا المبنى معاً، وأسرع يستقل السيارة إلى جواره، فقال (جمال) فى حدة:

- هل أسندوا إليك مهمة مراقبتى؟!

أجابه (سامى) فى هدوء عجيب، وهو يفتح حقيبته:

- بل هى مبادرة شخصية، فقد أردت أن أهديك هذا.

أخرج من الحقيبة ملفاً ضخماً، وضعه أمام (جمال)، الذى حدّق فيه بدهشة، مغمغماً:

- أهو...

قاطعه (سامى) مبتسماً:

- نعم... ملف قضية (طارق بشير)... تصوّرت أنه سيكون تسلية مناسبة، خلال إجازتك الإجبارية.

التفت إليه (جمال) بنظرة امتنان حاردة، فتابع (سامى):

- وبالمناسبة، لقد تقدّمت بطلب إجازتى السنوية؛ فلقد تصوّرت أيضاً أنك ربما تحتاج لمن يعاونك فى تسلية إجازتك.

استعاد (جمال) حزمه، وهو يدير محرّك سيارته، قائلاً:

- اسحبها.

سأله (سامى) فى دهشة:

- اسحب ماذا؟!

أجابه بنفس الحزم، قبل أن ينطلق بالسيارة.

- إجازتك السنوية... مساعدتك ستفيد تسلية إجازتى أكثر بالتأكيد؛ لو أنك موجود رسمياً فى العمل.

ارتفع حاجبا (سامى)، ثم انخفضا، وهو يستعيد ابتسامته، مغمغماً فى إعجاب:

- سأسحبها فوراً.

أجابه (جمال)، فى حزم أكثر:

- هيا... لا تضيع الوقت... سأنتظرك فى منزلى، فى التاسعة مساءاً.

غادر (سامى) السيارة، وانطلق (جمال) بها على الفور...

كانت مبادرة تلميذه تنعشه، ولكن غموض وغرابة القضية تدفع عاصفة من الأرق، فى عقله ومشاعره...

وبينما ينطلق بسيارته، عائداً إلى منزله، راح عقله يسترجع وقائع القضية الأساسية...

لقد وصل (طارق) إلى مكتب (عادل)، دون موعد سابق، ودون أية معرفة سابقة، كما أكّدت سكرتيرة (عادل)، وأكّد (طارق) نفسه، الذى أشار إلى أنه لم يعرف حتى السبب، الذى دفعه للقاء (عادل)، ولكن فى أعماقه كان هناك شئ غامض، يدفعه دفعاً إلى تلك المقابلة.

وبعد إلحاح منه، وتأكيد على خطورة الأمر، وافق (عادل) على مقابلته، وأدخلته سكرتيرته بنفسها إلى مكتبه، حيث أكّدت فى شهادتها أنه كان من الواضح أن (عادل) لم يلتق به من قبل قط

غادرت السكرتيرة المكتب بعدها، وأغلقت بابه خلفها، وبعد أقل من عشر دقائق، سمع كل من فى المكتب صوت جلبة فى الداخل، فأسرعوا إلى هناك؛ ليجدوا (طارق) وحيداً، دون أى أثر لمديرهم (عادل)، فيما عدا بقعة من الدم، على طرف مكتبه، أكّد المعمل الجنائى أنها تنتمى إليه جينياً...

والعجيب أن (طارق) كان فى حالة ذهول، استغرقت دقائق خمس لانتزاعه منها، وعندما أفاق، بدت عليه دهشة كبيرة، وأقسم أنه لا يعرف ماذا حدث، ولا أين ذهب (عادل)...

لم تكن على جسده أو ملابسه أية آثار لدماء (عادل)، ولكن بخلاف هذا، فكل شئ يثبت أنه آخر من رآه حياً...

وآخر من دخل إلى الحجرة، ذات الدخل الواحد...

ولم يسفر البحث، أو تسفر تحريات البحث الجنائى، عن أية آثار أخرى...

ولا حتى (عادل) نفسه...

وعلى الرغم من استحالة الأمر، لم تجد الشرطة أمامها سوى اتهام (طارق)، الذى تم تقديمه إلى المحاكمة، التى تأثرت بشهرة (عادل) الواسعة، كخبير فى تكنولوجيا المعلومات، وصاحب واحدة من أشهر الشركات، العاملة فى هذا المجال، فأصدرت حكمها على (طارق) بالإعدام شنقاً، وتم تأييد الحكم فى محكمة النقض أيضاً...

ولكن (طارق) لم يعترف بارتكابه الجريمة قط..

لقد أصّر على أنه برئ، وعلى أنه لا يعرف ماذا حدث، منذ دخوله إلى الحجرة، وحتى اقتحام موظفى الشركة لها...

والبقية معروفة...

كانت القضية تبدو له غامضة منذ بدايتها، وتحمل مجموعة هائلة من الأسئلة، لم يحاول زميله، الذى اسندت إليه، أن يجيب أحدها...

لماذا زار (طارق) (عادل)؟!...

وما سر إلحاحه فى مقابلته؟!

وما ذلك الامر العاجل الخطير، الى أراد أن يخبره به؟!

ثم السؤال الأهم: لماذا قتله؟!...

وكيف؟!

الزمن الذى قضاه (طارق)، فى مكتب (عادل)، لم يكن يكفى لارتكابه الجريمة، وإخفاء الجثة، خاصة وأن موظفى المكتب، قد أسرعوا إلى حجرة (عادل)، فور سماعهم تل الجلبة فيه...

ودون إضاعة لحظة واحدة...

هذا ما اجمعوا عليه فى شهادتهم، أمام الشرطة والنيابة والقضاء...

فحتى لو افترضنا أن (طارق) قتل (عادل)، فور أن أغلقت السكرتيرة الباب خلفه، سيبقى السؤال الأخطر...

أين الجثة؟!...

الحجرة التى جمعت القاتل والقتيل، حجرة لها باب واحد، ونافذة واحدة، تطل على الشارع الرئيسى مباشرة...

والجريمة المفترضة تمت فى الواحدة والثلث ظهراً...

فماذا فعل (طارق) بجثة (عادل)، لو أنه قتله بالفعل؟!...

ومتى؟!...

الدقائق العشر كلها لم تكن تكفى لإخفاء الجثة، بحيث يعجز فريق كامل عن العثور عليها، بعد تفتيش المبنى كله...

فماذا حدث بالضبط؟!...

ماذا؟!...

فجأة، وعند تلك النقطة، انتفض جسده كله فى عنف،كاد يفقد معه

السيطرة على عجلة القيادة، وهو يحدّق فى مرآة السيارة الداخلية...

فهناك، وعلى المقعد الخلفى، كان يجلس رجل، له وجه مألوف...

رجل لم يكن حتماً داخل السيارة، عندما انطلق بها (جمال)..

كان الدكتور (رأفت فهمى)....

شخصياً.

• • •

الفصل السادس

على الرغم من صعوبة الموقف، وقفالرائد (سامى) ثابتاً، أمام مدير الأمن، الذى بدا شديد الصرامة، وهو يسأله:

- لماذا لحقت بالعقيد (جمال)، عند مغادرته المبنى؟!

أجابه (سامى) فى هدوء، لم يدر هو نفسه كيف حصل عليه:

- سيادة العقيد (جمال) أستاذى، ومن الطبيعى، عندما آراه يغادر المبنى غاضباً، أن ألحق به؛ لسؤاله عن سر غضبه.

التفت مدير الأمن إلى احد الضباط، الذى أبدى حركة غير ذات معنى واضح، فعاد مدير الأمن إلى (سامى)، يسأله فى صرامة أكثر:

- وبم تبرِّر اختفاء ملف قضية (طارق بشير)، عقب لحاقك به، وأنت تحمل حقيبتك؟!..

هزَّ (سامى) كتفيه، قائلاً بنفس الهدوء، الذى أدهشة شخصياً:

- ولماذا أحتاج إلى تبرير؟!... الملف لم يكن فى عهدتى الشخصية.

انعقد حاجبا مدير الأمن فى غضب، وهو يقول فى حدة:

- انت هادئ أكثر مما ينبغى.

سأله (سامى) فى حذر:

- وما الذى يفترض أن أكون عليه؟!

أجابه الضابط الآخر:

- أى ضابط، يوجَّه إليه مثل هذا الاتهام، يصاب بالتوتر على الأقل.

لم يلتفت إليه (سامى)، وهو يجيب:

- هذا لو أنه لديه بعض الشك فى برائته.

تبادل الضابط مع مدير الأمن نظرة صامتة، قال بعدها هذا الأخير:

- فليكن أيها الرائد... لقد أمرت بإجراء تحقيق مكَّثف، حول واقعة اختفاء الملف، وأعدك بانه لو ثبت تورُّطك، بأى حال من الأحوال، فى هذا الأمر، فستتمنى لو أنك لم تدخل كلية الشرطة من الأساس.

اعتدل (سامى) فى وقفته، وهو يقول فى حزم:

- هل من أوامر أخرى؟!

بدا الغضب واضحاً، فى ملامح مدير الأمن وصوته، وهو يقول:

- كُلا... يمكنك الانصراف الآن، ومحظور عليك، منذ هذه اللحظة، أن تجرى أية تحقيقات، بشأن هذه القضية... أهذا مفهوم.

أدَّى (سامى) التحية، وهو يقول:

- باتأكيد يا سيِّدى.

ولم يكد يغادر الحجرة، حتى قال الضابط الآخر فى ضيق:

- أنا واثق من انه من سرق الملف.

أجابه مدير الأمن فى صرامة:

- لا يمكن اتهامه، بدون دليل واحد على الأقل.

قال الضابط فى توتر:

- أنا واثق من أننا، لو لحقنا بالعقيد (جمال)، فسنجد الملف بحوزته.

صمت مدير الامن قليلاً؛ ليدرس الامر فى رأسه، ثم قال فى صرامة:

- خذ اثنين من مساعديك، واذهب إلى منزله فوراً.

ثم استمالت صرامته إلى توتر بالغ، وهو يردف:

- فمن الواضح أن هذه القضية ستحمل إلينا الكثير من المتاعب... الكثير جداً.

فى نفس اللحظة التى نطقها، كان (سامى) يجلس خلف جهاز الكمبيوتر فى مكتبه، يراجع تحريات البحث الجنائى، حول واقعة (طارق بشير)...

لم يكن البحث الجنائى قد توصّل إلى أى شئ فعلياً، ولكنه لم يجد أمامه سوى (طارق)...ولهذا تم اتهامه..

وقصة (طارق) لم تكن مقنعة أبداً، لكل من قام بالتحقيق معه؛إذ لم يكن هناك معنى لأن يصُر على مقابلة شخص لا يعرفه، ولأسباب لا يعرفها...

والشرطة مثل النيابة والقضاء، تحتاج إلى أن تفهم الأسباب...

ولم تكن لدى (طارق) أية أسباب...

حار فى هذا الأمر لحظات، وهو يراجع كل الاحداث والوقائع، وشهادات الشهود..

ومع كل سطر يطالعه، كانت حيرته تزداد...

وتزداد...

وتزداد..

وفى توتر، تراجع فى مقعده، وأخذ يتمتم محدثاً نفسه:

- ماذا لو سرنا على منهج سيادة المفتش، وافترضنا أن (طارق) صادق فيما قال، وأنه بالفعل يجهل ما دفعه إلى هذا، فما الذى يمكن أن يوصلنا هذا الافتراض إليه؟!...

درس كل الاحتمالات المنطقية فى ذهنه، ولكنها ارتطمت كلها فى النهاية بأمور يعجز أى عقل عن تفسيرها..

وأهم تلك الأمور واخطرها، اختفاء جثة (عادل إبراهيم)...

فحتى لو افترض، كما افترض المحقّق الرئيسى، أن جهة منافسة، قد استأجرت (طارق) هذا، كقاتل محترف؛ للخلص من (عادل)، فلماذا لم يحاول (طارق) أن يفعل هذا، فى فيلا (عادل)، أو خلال انتقاله فيها أو إليها؟!..

لماذا اختار مكاناً يكتظ بالشهود؟!..

وكيف ارتكب جريمته؟!..

وفقاً لتحريات البحث الجنائى، فالمتهم (طارق) شخص عادى، عمل فى دول الخليج لعدة سنوات، ثم عاد منها بثروة معقولة، استهلكها كلها فى شراء منزله الصغير، فى تلك المدينة الجديدة..

وهو لا يملك أى سجل غجرامى، ولا حتى مخالفات مرورية غير عادية...

أما (عادل)، فهو رجل اعمال متميّز، ظهر على الساحة منذ بضع سنوات، وأنشأ شركته الخاصة، التى حقّقت نجاحاً كبيراً، فى سنوات قليلة...

وكلا الرجلين غير متزوّج، ويعيش وحيداً فى منزله...

وربما هذه هى الصلة الوحيدة بينهما، التى أمكن التوصّل إليها،

وفى رأيه أنها لا تساوى شيئاً فى الواقع، بالنسبة لجريمة قتل بهذا الغموض..

أدرك لحظتها كم كان يشعر أستاذه بالتوتر، وعقله يعجز، مع كل ما بذله، عن إيجاد لمحة واحدة، تقوده إلى شئ من ضوء الحقيقة، فى هذه القضية...

ولقد كاد يشعر باليأس بحق، وينحى هذه القضية عن ذهنه، لولا أن جالت بخاطره لمحة مفاجئة...

البحث الجنائى ركّز كل تحرياته، بطبيعة الحال، حول المتهم...

ولكن ماذا عن الضحية؟!..

ففى رأيه، إن غموض (عادل) لا يقل، باى حال من الاحوال، عن غموض (طارق) نفسه...

شخص ظهر فجأة على الساحة، مع ثروة كبيرة، وعبقرية تكنولوجية فذة، جعلت شهرته تفوق الآفاق، خلال عام واحد، مما سمح له بتأسيس شركة (المستقبل لتكنولوجيا المعلومات)، والتى صارت اليوم الشركة الاولى فى (مصر)، التى تتولى كل العمليات التكنولوجية، فى عدد من الشركات والفنادق الكبرى...

ومع نجاح شركته، وعبقريته الواضحة، التى اعترف بها حتى كبار علماء (مصر)، والخبراء فى مضماره، ومع كم الشهادات، التى يزيّن بها حجرة مكتبه، والتى حصل عليها من أكبر جامعات العالم، لم يتساءل حتى الأمن نفسه، عن مصادر ثرواته..

الكل تعامل باعتبار أن بداية ظهوره وشهرته، هى البداية الفعلية...

وهذا أكبر خطأ...

فى رأيه على الأقل...

عند هذه النقطة، قرّر الانتقال إلى سجلات الداخلية، بحثاً عن بدايات (عادل إبراهيم) الفعلية...

بيانات رقمه القومى، تشير إلى أنه ينتمى إلى قرية، فى عمق جبال مدينة (قنا)، وانه قد تلقّى الشطر الأوّل من تعليمه الأساسى، فى مدرسة القرية، ثم أكمله فى مدارس مدينة (قنا)، قبل أن يحصل على شهادة الثانوية العامة، بمجموع أهّله للالتحاق بكلية الهندسة، فى مدينة (أسيوط)، حيث تخرّج منها بامتياز، وسافر بعدها لاستكمال دراسته، فى الولايات المتحدة الأمريكية، التى عاد منها بالثروة والعلم معاً...

ولكن صورته بدت، وكأنها لا تتفق مع هذه المعلومات..

لقد كان أبيض البشرة، رمادى العينين، انيق الملبس، على نحو أثار الشك فى نفس (سامى) لحظات، فى انه ابن قرية بسيطة، مدفونة وسط جبال الصعيد، إلا أنه لم يلبث أن طرح ذلك الشك عن ذهنه، واعتبره فى أعماقه شكاً عنصري النزعة، لا يتفق مع قواعد البحث الجنائى السليم.

ولكن هذا لم يمنعه من التوقّف بعض الوقت، أمام اسم تلك القرية، التابعة لمحافظة (قنا)...

ومعها، طرح على نفسه سؤالاً جديداً...

لماذا لا يبدأ بحثه عن الحقيقة هناك...

فى قلب الصعيد؟!..

هناك، حيث مازالت تسيطر بعض النزعات القبلية البدائية، التى قد تدفع بعضهم للانتظار سنوات وسنوات؛ للثأر لشخص ما..

أو من شخص ما...

ربما كان سفر (عادل) إلى الولايات المتحدة، وسيلة لجأ إليها كبير عائلته؛ لإبعاده عن لعبة ثأر قديمة...

وهنا قد يكون لمصرعه علاقة بذلك الثأر... إن وجد...

وهذا إحتمال كبير...

وأقرب إلى المنطقية...

ربما لا يجيب عن غموض اختفاء الجثة...

ولكنه يضع الدافع للقتل...

وهذه نقطة بداية جيدة..

نقل بيانات الرقم القومى، واسم القرية إلى ملف خاص، على هاتفه المحمول، وفكّر فى الاتصال بأستاذه؛ لينقل إليه نظريته، ولكنه خشى أن يكون هاتف أستاذه مراقباً، فقرّر أن يدخر هذا، حتى يلتقى به فى التاسعة مساءاً، وعندما ألقى نظرة على ساعة يده، ادهشه أنه قد استغرق ثلاث ساعات كاملة فى بحثه، دون أن يشعر، وأن عقارب الساعة قد اقتربت من الثامنة، مما يعنى انه عليه أن يتحرّك فوراً، إذا أراد الوصول فى موعده...

بدأ يلملم أشياءه فى سرعة، عندما دخل الضابط، الذى التقاه فى مكتب مدير الامن إلى مكتبه، وساله فى صرامة:

- إلى أين؟!

أجابه (سامى) بالصرامة نفسها:

- ليس هذا من شانك، ولا تنسى أبداً أننا برتبة واحدة، وأننى أسبقك بشهر كامل، و...

قاطعه زميله فى صرامة أكثر:

- اين العقيد (جمال)؟!

رفع عينيه إليه، فى دهشة حقيقية، وهو يقول:

- المفترض أنه فى منزله الآن.

أجابه زميله فى حدة:

- انت تعلم أنه ليس كذلك، وأنا واثق من انك تعلم أين هو بالتحديد.

بدأ القلق يتسلل إلى نفس (سامى)، وهو يسأله:

- ماذا هناك بالضبط يا (على)؟!

أجابه الرائد (على)، فى عصبية واضحة:

- إنه لم يصل إلى منزله قط، بعد انصرافه من هنا، ولم يصل حتى إلى أى مكان آخر معروف.

تضاعف قلق (سامى)، مما جعله يهتف:

- أخبرنى ماذا هناك بالضبط.

أجابه (على)، وعصبيته تتزايد:

- لقد وزعنا نشرة عاجلة، بأوصاف سيارته، وتم العثور عليها بالفعل، فى منطقة مهجورة، بالقرب من (حلوان).

هتف (سامى)، وقد بلغ قلقه مبلغه:

- مهجورة؟!...أين ذهب إذن.

رفع (على) عينيه إليه، وقال بصوت حمل كل توتره وانفعاله:

- لقد اختفى... اختفى تماماً...

وهوى الخبر على رأس (سامى) كالصاعقة...

أو أشد هولاً.

• • •

الفصل السابع

منذ أن التحق بأكاديمية الشرطة، لم يشعر (سامى) بالتوتر قط، مثلما شعر به، وهو يدور حول سيارة (جمال)، ويفحصها من كل الزوايا، فى حين يقوم رجال المعمل الجنائى بعملهم..

كان من الواضح ان قائدها لم يتركها بإرادته، فقد ظل مفتاحها داخلها، على الرغم من كونها مغلقة من الداخل، وكان ناقل الحركة فيها على وضع الانطلاق، وخزانها شبه ممتلئ بالوقود...

وعلى الرغم من الهمة، التى يعمل بها رجال البحث الجنائى، لرفع البصمات من داخل السيارة، والبحث عن أية أدلة أخرى فيها، فقد بدا له أن لا أحداً يبذل ما يكفى من الجهد، حتى أنه هتف بالضابط، الذى وصل إلى منطقة الحادث أولاً:

- قل لى بالله عليك...كيف يمكن لرجل أن يغادر سيارته، وهى مغلقة من الداخل؟!..

أجابه الضابط، فى حيرة تفوق حيرته:

- بل قل لى أنت، كيف يمكن أن يغلقها من الخارج، وهذا الطراز الحديث من السيارات، لا يمكنك أن تغلقه من الخارج، مادام مفتاحها مكانه؟!..

زادت العبارة من حيرته، وعاد يحدِّق فى السيارة بكل دهشته وتوتره، قبل أن يسأل مرة أخرى:

- هل رأى أحد الشهود شيئاً؟!

هزَّ الضابط رأسه نفياً، قبل أن يجيب:

- المنطقة شبه مهجورة كما ترى، ولقد عثرت واحدة من

دوريات الشرطة على السيارة هنا، بعد توزيع نشرة عاجلة بأوصافها، وأدهشهم موقفها كما أدهشنا، ولكنهم أبلغوا عن الأمر فوراً، وهناك حملة الآن، لاستجواب سكان المناطق المجاورة، لعل أحدهم قد رأى شيئاً.

غمغم (سامى):

- ولم تجدوا شاهداً واحداً بعد؟!

هزَّ الضابط رأسه نفياً مرة أخرى، وهو يجيب:

- من الواضح أن أحداً لم ير شيئاً.

وثبت فكرة إلى ذهن (سامى) فجأة، فسأل فى لهفة:

- وماذا عن آثار الأقدام حولها؟!

بدا الضابط أشد حيرة، وهو يجيب:

- رجال الدورية أكَّدوا أنه، بخلاف آثار أقدامهم، لم تكن هناك أية آثار أقدام أخرى، عندما وصلوا إلى هنا.

هتف (سامى) فى عصبية:

- ولكن هذا مستحيل...إنه لم يتلاشى داخل سيارته حتماً.

تلفَّت الضابط حوله فى توتر، وهو يغمغم:

- من يدرى؟!

تلك الكلمات فجرَّت فى نفس (سامى) رعباً هائلاً...

ولم لا؟!..

الغموض كله بدأ باختفاء (طارق بشير)، وكأنه قد تلاشى فجأة...

ثم هناك تلك الواقعة، التى لا يذكرها سوى العقيد (جمال) وحده،

عن ذلك الزائر الغامض، الذى تلاشى بدوره، دافعاً الومن إلى الوراء...

فما الذى يعنيه كل هذا؟!...

كان أمام لغز، أشبه بما يكون بروايات الخيال العلمى، التى يعشق مطالعتها، منذ حداثة أظافره...

ولكن من يمكن أن يشاركه رؤيته هذه؟!...

وحتى لو طبَّق نظرية أستاذه، فسيجد أنه من العسير عليه استبعاد المستحيلات؛ لأن كل ما حدث أشبه بالمستحيلات...

وكل خطوة، فى هذه القضية العجيبة، تعنى المزيد والمزيد من المستحيلات...

وقف ذاهلاً، يراقب ما يحدث، قبل أن يقول فى حزم، تخلَّل توتره:

- لابد من العودة إلى البداية.

لم يفهم الضابط ما قاله، فتساءل:

- ماذا؟!

لوَّح (سامى) بيده فى توتر، وهو يقول:

- لا عليك... تابع التحقيقات هنا، وسأعطيك رقم هاتفى الخاص؛ لتبلغنى بأية تطوُّرات فور حدوثها.

أتاه صوت (على) من خلفه، وهو يقول فى صرامة:

- لا أظن أن ها سيحدث.

التفت إليه فى حركة حادة، فتابع (على)، وهو يتجه نحو السيارة:

- يبدو أنك قد نسيت أنه من المحظور عليك التدخُّل فى هذه القضية.

قال (سامى) فى عصبية:

- المفترض أن هذه قضية جديدة.

أجابه (على) وهو ينحنى لفحص السيارة:

- هراء.

ثم أعتدل، والتفت إلى الضابط، قائلاً بكل صرامة:

- أية تطوُّرات ستبلغنى بها وحدى... هل تفهم... وحدى.

رمقه (سامى) بنظرة عصبية غاضبة محنقة، ثم اندفع نحو سيارته، وانطلق بها مبتعداً، وذهنه يرسم خطة العمل القادمة...

من حسن حظه أنه لم يكن قد تقدَّم بطلب سحب إجازته بعد، عندما استدعاه مدير الأمن إلى مكتبه، فور عودته من سيارة (جمال)...

هذا يعنى أنه يستطيع الحصول على الإجازة، اعتباراً من هذه اللحظة...

أدار مقود سيارته، منطلقاً نحو منطقة (العجوزة)، حيث مستشفى الشرطة، وهو يدرس الموقف مرة أخرى فى ذهنه...

هذه القضية تعلَّقت كلها بالاختفاء، بدءاً من اختفاء جثة (عادل إبراهيم)، وحتى اختفاء العقيد

(جمال)، مروراً باختفاء (طارق بشير) نفسه، اثناء تنفيذ حكم الإعدام فيه...

وهذا يعنى أنه لم يعد لديه شهود...

باستثناء (فارس حمدى) وفريقه...

راح يرتب خطواته التالية، وهو ينطلق بسيارته، حتى وصل إلى

مستشفى الشرطة، فأسرع غلى الفور إلى حجرة (فارس)، الذى كانوا قد ازالوا الضمادات عن عينيه منذ لحظات، والذى لم يكد يره، حتى هتف فى توتر:

- ماذا تريدون منى؟!... لقد أخبرتكم بكل شئ.

تمالك (سامى) أعصابه، وهو يجذب مقعداً، ويجلس إلى جوار فراشه، ويبذل قصارى جهده؛ للتظاهر بالهدوء:

- لا عليك يا (فارس)... إنما أتيت للاطمئنان عليك، وعلى أفراد فريقك فحسب.

رمقه (فارس) بنظرة شك، قبل أن يزفر قائلاً:

- حمداً لله، فلست أرغب فى استعادة تلك اللحظات الرهيبة، بأى حال من الأحوال.

ربَّت عليه (سامى) مهدئاً، وتراجع فى مقعده، ليرسم على وجهه ابتسامة، ويغمغم:

- أمازلت تصُّر على ان أرواح الموتى هاجمتكم؟!

هتف (فارس) فى عصبية:

- وماذا غيرها، يمكن ان يطلق ضوءاً بهذا السطوع، داخل مكان لا يحوى سوى مصباح صغير واحد؟!..

هزَّ (سامى) كتفيه، وقال:

- ولماذا ستفعل أرواح الموتى هذا؟!..

تلفَت (فارس) حوله فى رعب، وكأنما خشى أن تسمع تلك الأرواح المزعومة الحديث، فتعود إليه، وخفض صوته، وهو يجيب مرتجفاً:

- للإنتقام... لا تنسى أن حبل المشنقة، هو الذى انتزع أرواحهم جميعاً، فى تلك الحجرة المشئومة.

هزَّ (سامى) كتفيه مرة أخرى، وحرَّك رأسه بما يوحى بعدم اقتناعه، قبل أن يقول، باذلاً كل جهده؛ للسيطرة على انفعالاته:

- ألا يحتمل أن تكون ظاهرة طبيعية، مثل كرات البرق، التى وصفوها قديماً بانها أرواح الموتى، ثم ثبت أنها تتكون من تفريغ كهربى، خلال العواصف

بدا (فارس) غاضباً، وهو يقول فى حدة:

- وهل سمعت عن مثل تلك الظاهرة من قبل؟!

مرَّت لحظات من الصمت، قبل أن يجيب (سامى) فى حزم:

- كلا..

هتف به (فارس) ظافراً:

- أرأيت.

كان من الواضح أن الرجل لن يضيف شيئاً، إلى المعلومات المتوفرة لديه بالفعل، فقضى معه بعض الوقت، فى حوارات عادية، ثم تمنى له سرعة الشفاء، وغادر المستشفى، عائداً إلى سيارته..

ليست هذه هى البداية الحقيقية...

ولا حتى لحظة اختفاء (طارق)...

وليست أيضاً لحظة اختفاء (عادل)..

البداية الحقيقية تكمن حتما هناك...

فى تلك القرية التى نشأ فيها (عادل)...

قرية (الهو)، التابعة لمركز (نجع حمادى)، فى محافظة (قنا)...

قبل أن يتوقف أمام منزله، كان قد اتخذ قراره، بأن ينطلق إلى محافظة (قنا)، مع أولى نسمات الصباح...

كان يوقف محرك سيارته، عندما انطلق رنين هاتفه الخاص، فاختطفه فى لهفة، هاتفاً:

- هل من جديد؟!..

آتاه صوت ذلك الضابط عند سيارة (جمال)، وهو يقول فى صوت خافت مضطرب:

- لم يكن من المفترض ان أجرى هذا الاتصال، ولكننا عثرنا على شاهد عيان.

هتف (سامى) بكل انفعاله:

- حقاً؟!..

ولكن الضابط تابع فى سرعة، وكأنما يريد أن يلقى كل ما لديه دفعة واحدة، قبل أن ينتبه إليه أحد:- الرجل كان يرتجف خوفاً، وهو يدلى بشهادته، ورفض فى استماتة مجرد الاقتراب من السيارة، أو حتى من مكانها.

سأله (سامى) فى لهفة:

- ماذا رأى بالضبط؟!

أجابه الضابط بنفس السرعة:

- قال ان السيارة بدت له خالية فى البداية، ولقد أدهشه ان صاحبها قد تركها فى هذه البقعة المهجورة، وعندما اقترب منها، ظهر داخلها ضوء أزرق باهت، كشف له من وجود شخصين، أحدهما يجلس خلف مقعد القيادة، والآخر على المقعد الخلفى، ثم اختفى الضوء فى سرعة، فعاد يقترب منها، متصوراً أن من بداخلها قد يبحثون عن مساعدة ما، ولكن...

صمت الضابط لحظة، فهتف به (سامى) يستحثه:

- ولكن ماذا؟!..

بدا صوت الضابط مرتجفاً، وهو يجيب:

- ولكنه وجدها خالية تماماً.

ردَّد (سامى)، فى مزيج من الدهشة والانفعال:

- خالية... ولكن كيف؟!... ألم يقل أن...

قبل ان يتم عبارته، سمع صوت زميله (على)، على الجانب الآخر، وهو يقول فى صرامة غاضبة:

- مع من تتحدث؟!

وهنا، انهى الضابط المحادثة، وقد ترك خلفه قطعة جديدة من اللغز...

قطعة أكثر غموضاً...

ألف مرة.

• • •

الفصل الثامن

لم يتمالك الرائد (على) نفسه، من العصبية والتوتر، على الرغم من وقوفه أمام مدير الأمن، قائلاً:

- ذلك الضابط أخبره بما قاله الشاهد المأفون، على الرغم من أننى أمرته بعدم إبلاغ أى شخص سواى بالأمر.

فاجأة رد مدير الأمن، الذى اجاب فى بطء:

- لا بأس.

حدَّق فيه الرائد (على) فى دهشة بالغة، فتابع مدير الامن، مستعيداً صرامته المعتادة:

- لو أنه يسعى وراء الحقيقة، فهذا ما نسعى إليه كلنا.

قال (على) متوتراً:

- ولكن هذا يتعارض مع اوامرك يا سيِّدى، ألم تقل إنه...

قاطعه مدير الأمن، بنفس الصرامة:

- اسمعنى جيداً... إننا نواجه مجموعة من الاحداث الغامضة، التى ستعجز وسائلنا التقليدية حتماً عن كشفها، وكلما توغلنا فى الأمر، ازداد الغموض، بدلاً من أن تنكشف الحقائق، وهذا أمر مزعج للغاية، وعلى الرغم من أن الرسميات تحتم اتخاذ قرارات معينة، إلا أن الوصول إلى الحقيقة، وهو الغرض الأسمى، قد يحتم تجاوزات غير محدودة.

قال (على) فى عصبية:

- ولكن هذا سيتعارض مع عملى.

هزَّ مدير الأمن رأسه، وهو يشير بيده، قائلاً:

- على العكس... أنت ستواصل تحقيقاتك بصفة رسمية، وأن

كنت أجهل كيف ستورد مثل هذه الأمور فى تقاريرك، وسنغض البصر بعض الوقت عن (سامى)، ونتركه يواصل تحرياته، بصفة غير رسمية؛ لتسير الامور فى خطين متوازين، يسعيان خلف هدف واحد.

غمغم (على) فى غضب:

- الخطوط المتوازية لا تلتقى أبداً، مهما امتدت

أشار مدير الأمن بسبّابته، قائلاً فى حزم:

- إلا فى حالتنا هذه؛ لأن الهدف فى النهاية واحد.

ثم ارتكن براحتيه على سطح المكتب، مستطرداً بمنتهى الحزم، وهو يتطلع إلى عينى (على) مباشرة:

- الحقيقة.

صمت (على) لحظات، وقد أربكه موقف مدير الامن، ثم لم يلبث أن تمتم:

- ماذا أفعل مع الرائد (سامى) إذن؟!

أجابه مدير الأمن فى سرعة:

- غض بصرك عما يفعله، وتظاهر بأنك لا تراه، وسيمضى كل شئ على ما يرام.

لم يكن هذا يرضى (على) أبداً، إلا أنه لم يملك سوى أن يغمغم:

- كما تأمر يا سيدى.

فى نفس اللحظة، التى نطقها، كان (سامى) يصل بسيارته، إلى حيث ينتظره ذلك الضابط الآخر، بصحبة الشاهد الوحيد، الذى يبدو أن ما شاهده قد هزّ كيانه كله؛ إذ كان لايزال يرتجف ارتجافة، بدت واضحة فى يد (سامى)، وهو يصافحه قائلاً:

- أهدأ يا حاج... إننا لا نريد بك شراً.

أجابه الرجل، بصوت لا يقل ارتجافاً عن يده:

- لست أخشاكم يا ولدى، فلدى ابن مثلكم، يعمل فى شرطة المرافق، ولكن...

لم يتم عبارته، فغمغم الضابط الآخر:

- إنه يؤمن بأن ما شاهده كان عملاً من أعمال الجن والعفاريت..

صمت (سامى) لحظة، وكأنما يخشى تأييده للفكرة، ثم عاد يلتفت إلى الرجل، قائلاً:

- أأنت واثق من أن ما رأيته لم يكن وهماً، أو خداعاً بصرياً يا حاج؟!

بدا الرجل عصبياً منزعجاً، وهو يقول:

- ألا تصدقوننى؟!

ربّت (سامى) على كتفه، فى محاولة لتهدئته، وهو يمنحه ابتسامة مطمئنة، قائلاً فى صوت منخفض؛ ليوحى للرجل بالألفة:

- بل نصدّقك تماماً يا حاج، ولكن كثيراً ما تخدعنا أبصارنا، مع انعكاس بعض الضوء، أو....

قاطعه الرجل فى توتر:

- المنطقة مهجورة، ولا يوجد مصدر لأى ضوء، باستثناء مصابيح الشارع الباهتة، وأنا أتمتع بنظر جيد، على الرغم من عمرى، و...

قاطعه (سامى)، وهو يفكر فى عمق:

- إذن فأنت واثق مما رأيته.

أجابه الرجل فى حزم:

- تمام الثقة.

ربّت (سامى) على كتفه مرة أخرى، وقال بابتسامة باهتة:

- أشكر لك تعاونك معنا يا حاج.

تردّد الرجل لحظة، قبل أن يسأله فى حذر:

- معذرة يا حضرة الضابط، ولكن هل أصبحت الشرطة تهتم بأمور الجن والعفاريت، فى أيامنا هذه؟!

بدت الدهشة على وجه الضابط الآخر، ولكن (سامى) ابتسم، وعاد يربّت على كتف الرجل، قائلاً:

- شكراً يا حاج.

انصرف الرجل حائراً؛ لأنه لم يحظ بجواب سؤاله، فى حين غمغم الضابط الآخر، فى قلق ملحوظ:

- هل تصدّقه؟!

أجابه (سامى) فى اقتضاب:

- نعم.

بدت الدهشة أكثر على الضابط، وأطلّت من صوته، وهو يقول:

- ولكنه قول يفتقر إلى أبسط قواعد العقل والمنطق.

أطلق (سامى) زفرة متوترة، قبل أن يغمغم:

- الواقع أننى، ومنذ بدأت هذه القضية، لم أعد أدرى أين دور العقل والمنطق فيها.

ثم التفت إلى الضابط، مردفاً فى اهتمام:

- وبمناسبة الحديث عن المنطق... ألديك أسباب معينة؛ لتعاونك معى على هذا النحو، على الرغم من الأوامر التى تلقيتها بالعكس؟!

انعقد حاجبا الضابط، وهو يقول:

- عندما وصلت إلى هنا، كنت شديد الاهتمام بالأمر على عكس الرائد (على)، ثم أنك أخبرتنى، أن العقيد (جمال فتحى) أستاذك، وأنك كنت مساعده فى القضية، التى اختفى خلال التحقيق فيها.

تساءل (سامى) فى شك:

- أتجد هذه دوافع قوية؟!

بدا الضيق على وجه الضابط، وهو يجيب فى حزم:

- اسمع يا سيادة الرائد... عندما التحقت بالشرطة، كان مثلى الأعلى الوحيد، الذى أصبو إليه، هو سيادة العقيد (جمال)، وعندما تم الحاقى بإدارة البحث الجنائى، بدا لى أننى أقترب من تحقيق حلمى، بأن أعمل يوماً معه، وعندما يكون أوّل لقاء لى به، هو واقعة اختفائه، فأنا مستعد للتعاون مع الشيطان نفسه؛ لو أن هذا سيعيده.

قالها فى حرارة وحماس، جعلا (سامى) يتطلّع إليه لحظات فى صمت، ثم يسأله:

- ما اسمك أيها النقيب؟!

شدّ الضابط قامته، وهو يجيب فى اعتداد:

- (أنور وصفى)... معاون مباحث القسم.

مال (سامى) نحوه، وسأله فى حزم:

- هل أنت مستعد للتعاون معى حتى النهاية.

أجابه (أنور)، فى سرعة وحسم:

- بكل تأكيد.

سأله (سامى)، فى حزم أكبر:

- مهما كان الثمن؟!

أجابه بنفس السرعة:

- ومهما كانت التضحيات.

صمت (سامى) لحظة، تفرّس خلالها ملامحه فى إمعان، قبل أن يقول فى بطء حازم:

- وماذا لو أخبرتك أننى أعمل بصفة غير رسمية؟!

صمت (أنور) بدوره لحظة أخرى، ثم تسللت إلى شفتيه ابتسامة، وهو يجيب فى خفوت:

- سيجعل هذا الأمر أكثر يسراً.

مد (سامى) يده ليصافحه، والتقت أيديهما، و...

وفجأة، شعر كلاهما وكأن دفعة من هواء بارد قد أصابتهما...

وكانت عقارب الساعة تشير إلى تمام منتصف الليل، وتلك المنطقة المهجورة، أو شبه المهجورة غارقة فى ظلام مخيف، إلا من بصيص من أضواء مصابيح الشارع البعيدة، وبرودة ذلك الهواء لم تكن تتفق مع الطقس من حولهما، مما دفع كليهما إلى الالتفات إلى مصدره، دون أن يفلتا أيديهما، و...

وفجأة، أشرقت تلك الشمس دون مقدمات...

وغمرهما معاً ضوء شديد السطوع، ألهب عيونهما فى شدة...

وشعرا بأنهما يسقطان عميقاً...

فى شمس منتصف الليل.

• • •

منتديات قلعة طرابلس
أبى النور
www.tripolicastle.com

الفصل التاسع

فجأة، استعاد (سامى) شعوره بما حوله...

لم يدر حتى متى فقد هذا الشعور...

لقد سطعت تلك الشمس فى وجهه بغتة، وشعر بانه يسقط فى هاوية عميقة، وأفلت يد النقيب (أنور)، الذى كان يصافحه...

ثم راح يسقط...

ويسقط...

ويسقط...

ثم فجأة، توقّف سقوطه...

وأفاق...

كان المكان من حوله كما تركه تماماً...

نفس المنطقة المقفرة... شبه المجهولة، شبه المظلمة...

وكانت أضواء الشارع مازالت تأتى من بعيد...

مع اختلاف واحد...

لم يكن النقيب (أنور) هناك...

لقد اختفى...

تماماً...

اتسعت عينا (سامى)، وهو يتلّفت حوله، فى ذهول تام، أضاف بعداً مخيفاً إلى ذلك السكون، الذى يخيم على كل ما حوله..

وبكل عصبيته وذهوله، دار بعينيه دورة كاملة فيما حوله...

كان كل شئ يمتد إلى مسافة بعيدة...

وليس هناك أدنى أثر للنقيب (أنور)...

بل لم يكن هناك حتى أثر لقدميه، على الرمال المحيطة به، فى تلك المنطقة...

كان وكأنه لم يوجد أبداً...

أو أن كل هذا مجرّد حلم...

أو كابوس...

عاد يتلّفت حوله مرة ثانية، قبل أن ينتبه إلى أمر، ضاعف من دهشته وذهوله...

لقد اختفت سيارته أيضاً...

وكذلك سيارة (أنور)...

انتفض جسده، على الرغم منه، وهو يحاول استيعاب ما حدث...

ضوء شديد السطوع...

وشعور بالسقوط...

ثم اختفاء لكل شئ...

فما الذى يعنيه هذا؟!...

شدة توتره لم تمنحه الصفاء الكافى؛ لفهم الأمر او استيعابه، ووجوده وحيداً فى هذا المكان ضاعف من توتره، و...

وفجأة، ارتفع رنين هاتفه المحمول، فانتفض جسده كله فى عنف مع رنينه، والتقط الهاتف فى سرعة، ليرتفع حاجباه فى ذهول أكثر، مع الاسم الذى حملته شاشة الهاتف الحديث...

كان اسم العقيد (جمال)...

المفتش (جمال فتحى)، رئيسه، الذى اختفى فى ظروف غامضة...

وبكل اللهفة، ضغط زر الاستماع، وهو يهتف فى انفعال:

- سيادة العقيد... أأنت بخير؟!

آتاه صوت العقيد (جمال)، وهو يقول فى صرامة:

- بالتأكيد... أى سؤال هذا؟!... لماذا لم تأت، فى الموعد الذى أخبرتك به؟!...لابد لنا من معاينة مسرح جريمة الهرم الليلة.

حمل صوته كل دهشته، وهو يغمغم:

- جريمة الهرم؟!... لقد قمنا بمعاينة المكان بالفعل، منذ أسبوع، و...

قاطعه صوت (جمال)، وهو يهتف فى غضب:

- أسبوع؟!... أى أسبوع؟!... ماذا أصابك أيها الرائد؟!... هل أيقظتك من حلم ما أم ماذا؟!

ارتفع حاجبا (سامى) بكل دهشته، وهمَّ بقول شئ آخر، و...

وفجأة، سطع ذلك الضوء الرهيب مرة أخرى..

وأشرقت شمس منتصف الليل ثانية...

ومرة جديدة، راح يسقط...

ويسقط...

ويسقط...

ثم ارتطم بالأرض فى عنف...

كان عقله يدور فى شدة، ولكنه أجبر جفنيه على الانفراج؛ ليتطلَّع إلى ما حوله بكل دهشة الدنيا...

إنه مازال فى نفس المكان...

كل شئ على حاله...

ولكن سيارته هناك...

وكذلك سيارة (أنور)...

و (أنور) نفسه، الملقى على مسافة أمتار قليلة منه، والذى نهض، ومزيج من الذهول والذعر يملأ عينيه، وهو يهتف:

- ما الذى حدث يا سيادة الرائد؟!... أين ذهبت؟!

نهض (سامى) فى صعوبة، وهو يغمغم:

- أين ماذا؟!... أنت اختفيت من هنا بعض الوقت، و...

قاطعه (أنور) فى عصبية:

- أنا؟!... إنه أنت من اختفى لحظات، ثم عدت فجأة.

ثم ارتبك فى شدة، وهو يضيف:

- أم أن عقلى كان مشوشاً بعض الوقت.

لم يستطع (سامى) إجابته، وهو يقف على قدميه، ويراوده شعور عجيب بالاجهاد، وكأنه قد قطع الطريق عدواً، من منزله إلى هنا، وغمغم:

- هذا ما نواجهه يا رجل.

سأله (أنور) بنفس الانفعال:

- وما هو؟!... كل ما أذكره هو أن الشمس قد أشرقت فى وجهينا فجأة، فسقطت أرضاً، و...

لم يستطع إكمال حديثه، وبدا وكأنه يعانى من ذهن مشوَّش

بالفعل، فارتبك على نحو ملحوظ، جعل (سامى) يتمتم:

- لقد شعرت الآن بما شعر به سيادة العقيد فى مكتبه... الامور تسير على نحو عجيب، وكأننا جزء من فيلم سينمائى للخيال العلمى، فكل شئ غامض، عجيب، لا يتناسب مع المعطيات التى عهدناها للحياة.

تمتم (أنور) بدوره فى عصبية:

- أنت على حق.

التقط نفساً عميقاً، فى محاولة لتهدئة نفسه الثائرة، ثم شد قامته، محاولاً استعادة سيطرته على نفسه، قبل أن يسأل، فى لهجة عسكرية:

- ما اوامرك الآن، يا سيادة الرائد؟!

أشار (سامى) بيده، وهو شبه شارد بأفكاره، وغمغم:

- لا داع للرسميات، فأنا خارج العمل رسمياً.

جعلت كلماته (أنور) يسترخى فى وقفته، وهو يسأل، فى اهتمام مشوب بالقلق:

- ماذا تريد منى أن أفعل؟!

مضت لحظات من الصمت، قبل أن يقول (سامى) فى حزم:

- أريدك أن تفحص المنطقة كلها، مع مطلع الفجر... ابحث عن أية أسلاك مخفاة تحت التراب، أو اجهزة أليكترونية مندسة فى مكان ما.

بدا الاهتمام أكثر على (أنور)، وهو يسأله:

- هل تعتقد أنه هناك خدعة ما فى الامر؟!

أجابه فى حزم:

- لا يمكننا إهمال هذا الاحتمال.

عاد (أنور) يشد قامته، ويستعيد لهجته العسكرية، وهو يقول:

- كما تامر يا سيادة الرائد.

بدا (سامى) أكثر شروداً، وهو يقل:

- أما أنا، فأعتقد اننى سأبدأ مهمتى على الفور، دون انتظار الصباح.

قالها، واستدار متجهاً نحو سيارته فى حزم، فهتف به (أنور):

- إلى أين؟!

أجابه فى حزم شديد:

- إلى نقطة البداية.

ثم التفت إليه نصف التفاته، مضيفاً:

- إلى (الهو).

تمتم (انور) فى دهشة:

- (الهو)؟!... أى (هو)؟!

ولكن (سامى) لم يجبه، فقد كان داخل سيارته بالفعل، يدير محركها، وهو يقول لنفسه:

- لابد وأن أفهم ما يحدث... لابد.

ثم انطلق بسيارته، متجهاً نحو طريق الصعيد..

كان فكره شارداً، وهو يحاول تطبيق تلك القاعدة، التى طالما آمن بها رئيسه...

لو استبعد المستحيلات، فكل ما سيتبقى هو الحقيقة، مهما بلغت غرابتها...

ولكن المشكلة أن كل ما ارتبط بهذه القضية، يندرج تحت كلمة (المستحيلات) هذه...

كل ما حدث هو مستحيل!...

من الناحية العلمية على الأقل...

توُقفت أفكاره عند هذه النقطة، لتنتقل فجأة إلى نقطة أخرى، تبدو للوهلة الأولى.

وكأنه لا صلة لها بالأمر كله..

إلى روايات وأفلام الخيال العلمى...

فأكثر ما تعلّمته، من تلك الروايات والأفلام، هو أنه لا يوجد ما يسمى بالمستحيلات العلمية فعلياً؛ لأنه مصطلح نطلقه، وفقاً لما بلغته علومنا...

فقط ما بلغته، حتى لحظة القول..

فذلك الكمبيوتر الصغير الدقيق، فى هاتفه المحمول، كان منذ عشرين أو ثلاثين عاماً من المستحيلات العلمية، ولم يكن من الممكن أن تراه، إلا فى أفلام الخيال العلمى...

ثم ها هو ذا حقيقة...

حتى خاصية اللمس فى شاشته، والتى صارت أمراً معتاداً الآن، كانت فيما مضى من صنع الخيال...

وقراءاته فى هذا المضمار تثبت هذا...

الغوّاصة كانت خيالاً علمياً، فى نهايات القرن التاسع عشر، عندما كتب عنها (فيرن)، ثم صارت أحد أقوى أسلحة الحروب، بعد مضى أقل من نصف قرن...*

وكذلك الصاروخ...

والسفر إلى القمر...

بل والطيران نفسه...

كان القدماء يقولون: إنه لو أراد الخالق عزّ وجلّ لنا أن نطير، لخلق لنا أجنحة...*

ثم طرنا، بآلات صنعناها، وطوّرناها، وقاتلنا وربحنا الحروب بها...

حتى الاختفاء، والسفر عبر الزمن...

عندما تحُدث عنهما (ويلز)*، كانا مجّرد خيال علمى، ثم صنع العلم حقيقة، منذ عام 1997 م*

لا توجد إذن مستحيلات علمية...

يوجد قصور علمى...

امتزجت هذه النقطة بالقضية نفسها، وبدأت تقود تفكيره إلى اتجاه جديد...

هل ما يحدث، بكل غموضه، هو حصيلة كشف علمى جديد، لم يفصح عنه بعد؟!...

أو سلسلة من تجارب، حول سلاح جديد؟!...

ربما كان هذا هو التفسير...

ربما!!...

لم تزده هذه الفكرة سوى غموضاً يفوق ما تحويه القضية من غموض، فهزّ رأسه فى قوة، وهو يواصل انطلاقه بسيارته، نحو طريق الصعيد، و...

وفجأة، أشرقت تلك الشمس شديدة السطوع فى وجهه مرة أخرى، وعلى نحو أفقده سيطرته على عجلة القيادة بغتة، وهو ينطلق بهذه السرعة...

ومع اضطراره لإغراق عينيه فى شدة، فى مواجهة ذلك الضوء شديد السطوع، انحرفت به السيارة فى حدة...

وكان الارتطام عنيفاً...

إلى أقصى حد.

• • •

الفصل العاشر

شعر الرائد (على) بتوتر بالغ، وهو يراجع ملف قضية اختفاء (طارق بشير) الغامض، فى حجرة الإعدام، وراجع أقوال شهود العيان للواقعة، وأقوال خبير المعمل الجنائى (فارس) ورجاله، قبل أن يغلق الملف بحركة حادة، ويتراجع فى مقعده، ويلتقط نفساً عميقاً متوتراً، وهو يغمغم فى عصبية:

- ما معنى هذا كله؟!

بدا له الأمر أكثر غموضاً من ذى قبل، عندما أضاف إليه اختفاء المفتش (جمال)، وما رواه شاهد الواقعة الوحيد، والذى جعل الامر يبدو أشبه بعالم الجن والعفاريت، وراح يعتصر عقله، محاولاً التوصُل لتفسير واحد للموقف كله...

اى تفسير يقبله العقل...

أى تفسير!!...

ولكن الامر بدا له أكثر استحالة، من أن يجد له أى تفسير منطقى، لذا فقد نهض من خلف مكتبه، وهو يقول لنفسه فى عصبية شديدة:

- ترى ماذا كان سيفعل المفتش (جمال)، لو أنه فى موضعى هذا؟!

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع رنين الهاتف الداخلى على مكتبه، فانتفض جسده لحظة، قبل أن يلتقط سمّاعته، وهو يقول بنفس العصبية:

- أفندم.

فاجأه صوت مدير الأمن، وهو يقول فى توتر:

- (على)....تعال إلى مكتبى فوراً.

قالها، وانهى المحادثة على الفور، كما اعتاد أن يفعل، عندما يكون الأمر بالغ الخطورة، لذا فقد أسرع إليه (على) على الفور، وما أن دخل مكتبه، حتى بادره مدير الأمن فى عصبية:

- القضية تزداد غموضاً.

جف صوته، وهو يسأله:

- ما الجديد؟!

لوّح مدير الأمن بذراعه، وهو يقول:

- عثروا على سيارة الرائد (سامى رضوان)، محطمة، فى طريق الصعيد.

سأله (على)، وحلقه يزداد جفافاً مع الانفعال:

- ماذا أصابه؟!

أجابه مدير الأمن، وهو يلتقط ورقة من على مكتبه:

- من الواضح أن السيارة قد انحرفت فجأة لسبب ما، وارتطمت بصخرة كبيرة على جانب الطريق، وتحطمت مقدمتها تماماً، كما فقدت إحدى إطاراتها.

سأله (على) فى لهفة:

- وماذا عن (سامى)؟!

صمت مدير الامن لحظة، قبل ان يجيب فى عصبية:

- اختفى.

ارتفع حاجبا (على)، فى دهشة بالغة، وغمغم:

- كيف؟!

زفر مدير الأمن فى توتر، قبل ان يجيب:

- لا احد يعلم... السيارة، على الرغم مما بها من اصابات، كانت تماماً مثل سيارة العقيد (جمال)، مغلقة من الداخل، ولا أثر له داخلها...لا توجد حتى بقعة دماء، ناتجة عن الحادث.

زفر مرة أخرى، مستطرداً فى عصبية:

- هذه القضية صارت مؤرقة إى حد مخيف.

حدّق فيه (على) لحظات، غير مصدّق لما يسمعه، ثم هزّ رأسه، وكأنما ينفض عنها التوتر والحيرة، وقال:

- ولماذا طريق الصعيد؟!

أجابه مدير الأمن فى سرعة، وكأنما كان ينتظر السؤال:

- ربما كان فى طريقه إلى قرية (عادل إبراهيم).

غمغم (على):

- قتيل قضية (طارق).

أومأ برأسه، مجيباً:

- بالضبط...عندما اختفى (طارق)، راجعت ملف القضية، وأذكر أن القتيل كان من قرية تدعى (الهو)، فى اعماق جبال مركز (نجع حمادى) فى محافظة (قنا)، واظن ان (سامى) كان فى طريقه إلى هناك.

انعقد حاجبا (على)، وهو يغمغم:

- آه... أراد الذهاب إلى أبعد نقطة بداية.

أشار إليه مدير الأمن، قائلاً فى حزم:

- بالضبط...وهذا ما ستفعله.

ارتفع حاجبا (على) فى دهشة، ولكن المدير أكمل بنفس الحزم:

- ستستقل الطائرة بعد ساعة إلى (الأقصر)، ومن هناك ستحملك واحدة من سيارتنا إلى قرية (الهو)، وخلال الطريق، حاول أن تعرف من أين كان (سامى) ينوى البدء.

ظل حاجباه مرفوعان لحظة، ثم خفضهما، وهو يتساءل:

- وماذا عن (سامى) نفسه؟!

لوّح مدير الأمن بذراعه مرة أخرى، وهو يقول:

- لقد وزعنا نشرة بأوصافه، والمعمل الجنائى يقوم بفحص سيارته الآن، بحثاً عن أية بصمات أو دلائل، وسأبلغك بما يتوصلون إليه أوّلاً بأول....والآن هيا... الطائرة لن تنتظرك.

استعاد (على) كل هذا الحديث، خلال الفترة التى قطعتها الطائرة، من (القاهرة) إلى (الأقصر)، وهناك كانت سيارة مديرية أمن (قنا) فى انتظاره بالفعل، مع مدير مباحث المديرية، المقدّم (شوقى)، الذى قال، والسيارة تنطلق بهما إلى (نجع حمادى):

- لست ادرى ما الذى تتوقعون وجوده فى (الهو) هذه!...إنها قرية صغيرة، فى حضن الجبل، كما يقولون هنا، ومنذ تسلّمت عملى فى المحافظة، لم أسمع عن أية مشكلات فيها.

غمغم (على):

- نتوقّع أن نجد فيها البداية.

سأله فى اهتمام:

- بداية ماذا؟!

صمت (على) لحظة، ثم اجاب فى بطء:

- بداية ما يمكنك أن تطلق عليه اسم القضية الغامضة.

أدرك (شوقى) أن الامر محاط بشئ من السرية، وإلا لما أرسلوا ضابط مباحث أقل منه رتبة من (القاهرة)، وجعلته طبيعة عمله وخبرته يلزم الصمت، حتى بلغوا بداية الطريق إلى (الهو)...

كانت فعلاً كما وصفها المقدّم (شوقى)...

فى حضن الجبل...

فقد بلغت بهم السيارة نقطة على الطريق الأسفلتى، ثم انحرفت منها إلى طريق ترابى نصف ممهّد، يمتد وسط الصخور والحقول، إلى نقطة، لا يمكنك أن ترى فى نهايتها إلا جبال ضخمة، جعلتها المسافة تبدو باهتة من بعيد...

ولقد سارت السيارة لوقت طويل نسبياً، على هذا الطريق نصف الممهّد، حتى شعر (على) وكأنهم يغوصون فى حضن الجبل فعلياً...

ثم فجأة، ظهرت القرية من بعيد، وابتسم المقدّم (شوقى)، وهو يقول:

- قبل أن أعمل هنا، لم اكن أتصوّر أنه هناك قرية بهذا الأسم بالفعل، فعندما كنت صغيراً، كنا إذا أردنا أن نصف مكاناً بعيداً مقفراً، نطلق عليه اسم (الهو).

تمتم (على)، وهو يتأمل القرية من بعيد:

- هذا صحيح.

واصلت السيارة سيرها لدقائق خمس إضافية، قبل أن تعبر ساحة

ترابية كبيرة، إلى دار العمدة، الذى وقف فى انتظارها بابتسامة عريضة، واستقبلهما بترحاب شديد، وهو يهتف:

- أى نور هذا؟!...(شوقى) باشا شخصياً فى بلدنا...مرحباً بك وبضيفك يا باشا...لقد أعددنا طعام الغداء، وكنا فى انتظاركما، منذ أخبرنى معاون نقطة الشرطة بقدومكما.

صافحه (على)، وهو يقول فى حزم:

- فيما بعد أيها العمدة...فيما بعد... لدى أوّلاً بضعة أسئلة، أريد أن أطرحها عليك.

هتف العمدة فى حزم:

- لا حديث إلا بعد الغداء يا باشا.

حاول (على) أن يعترض، ولكن (شوقى) ضغط يده، مغمغماً ومحذراً:

- هذه تقاليدهم.

صمت (على) على مضض، واضطر لقبول الدعوة، وإن أدهشه كرم الضيافة البالغ، والحفاوة التلقائية، التى أسرته بعض الوقت، إلا أنه لم يلبث أن أستعاد طبيعة رجل المباحث الصارم، وهو يتناول معهم كوب الشاى الصغير، فى مندرة العمدة، فارتشف رشفة صغيرة، ثم ساله:

- هل تذكر واحد من أبناء القرية، يدعى (عادل إبراهيم) أيها العمدة.

أجابه العمدة فى سرعة وبساطة:

- بالطبع يا باشا... إنه ابن الشيخ (إبراهيم حمّاد) رحمه الله... لقد كنت اعتبره مثل ابنى.

ثم تنهد، مردفاً:

- فليرحمه الله سبحانه وتعالى أيضاً.

مال (على) نحوه، وهو يسأله:

- لقد تعلّم فى مدرسة القرية، قبل أن ينتقل إلى (القاهرة)... أليس كذلك؟!

فاجأته نظرة الدهشة فى عينى العمدة، وهو يغمغم:

- مدرسةالقرية؟!...(القاهرة)؟!....يبدو أنك تتحدث عن شخص آخر، غير الذى كنا نعرفه يا باشا.

انعقد حاجبا (على)، وهو يقول:

- لست اظن هذا....الذى أتحدّث عنه هو (عادل إبراهيم حمّاد)، صاحب شركة تكنولوجيا المعلومات، والذى ولد وتعلم هنا، حتى المرحلة الـ...

قاطعه العمدة فى دهشة:

- تعلم هنا؟!.... المدرسة التى رأيتها، فى مدخل القرية، مدرسة حديثة يا باشا، لم يمض على وجودها ثلاثة أعوام، ولم يتخرج منها أحد بعد.

انتقلت الدهشة إلى (على)، وهو يقول:

- ولكن شهاداته تقول عكس هذا.

بدت الحيرة على (شوقى)، الذى اكتفى بنقل بصره بينهما، فى حين قال العمدة:

- إما انها شهادات غير صحيحة، أو أن الشخص غير من نعرفه، فالوحيد هنا، باسم (عادل إبراهيم حمّاد)، هو ابن الشيخ (إبراهيم)، وقد

لقى مصرعه بلسعة عقرب، منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وهو بعد فى السابعة من عمره.

ازداد انعقاد حاجبى (على) فى شدة، وهو يغمغم:

- ولكن هذا مستحيل!... لقد راجعت شهادة ميلاده بنفسى، وهى صادرة من الوحدة الصحية هنا.

ابتسم العمدة مشفقاً، وهو يقول:

- أية وحدة صحية؟!...فى تلك الفترة، لم نكن نستخرج شهادات ميلاد أو وفيات، لأنه لم تكن لدينا وحدة صحية، ولم نكن نهتم بمثل هذه الأوراق الرسمية، وعندما كان أحد أبناء القرية يرغب فى السفر خارج البلاد، كنا نقوم بتسنينه فى القومسيون الطبى، حتى يمكننا ان نستخرج له جواز سفر.

اتسعت عينا (على)، وبدأ جسده كله يتفاعل مع الصدمة والمفاجأة...

لقد راجع شهادة ميلاد (عادل إبراهيم) بنفسه، على شاشة الكمبيوتر المركزى، وكانت بياناتها كلها صحيحة، ومؤيدة بالمستندات الرسمية، فكيف يعقل أن يكون كل هذا زائفاً؟!...

كيف؟!..

وكأمل أخير، مال يسأل العمدة:

- ألا يحتمل أن يكون هناك آخر بنفس الاسم، غادر القرية منذ زمن طويل؟!..

هزَّ العمدة رأسه فى إصرار، قائلاً فى حزم:

- مطلقاً.

ثم مال نحوه بدوره، مكملاً:

- أنا أعرف كل من ولد هنا أو فى الجوار، منذ خمسين عاماً، وقريتنا لم يوجد بها من يحمل اسم (عادل إبراهيم حمّاد)، سوى المرحوم.

شعر (على) بالأرض تدور من حوله....

يالها من بداية مفاجئة!!...

القتيل (عادل إبراهيم)، هو فى الأساس شخصية وهمية...

شخصية لا وجود لها...

من الطبيعى إذن ان يختفى...

ولكن كيف؟!...

الرجل كان يحمل شهادات دولية، وكانت له دائرة هائلة من المعارف، على كافة المستويات...

وشركته كانت أشهر شركات تكنولوجيا المعلومات، ولازالت، وكل الاماكن الحيوية تعتمد عليها، وعلى تكنولوجيتها المتطوِّرة...

والرجل كان شهيراً للغاية...

فهل من المعقول، بعد كل هذا، ان يكون زائفاً؟!...

هل؟!...

تراجع؛ ليسند رأسه على الجدار، وقد بدا له أنه سيسقط من فوق كتفيه، فسأله العمدة فى قلق:

- هل ترغب فى ان تستريح قليلاً يا باشا؟!

حدَّق فيه (على) لحظة، وكأنه لا يراه، ثم انتفض فجأة، وكأنه

يخرج من حلم ما، وقال فى حزم، وهو يهب واقفاً:

- كُلا....بل أريد أن أنصرف.

هبَّ العمدة واقفاً بدوره، وهو يقول فى حرارة:

- ليس قبل موعد العشاء.

أجابه (على) فى صرامة:

- كُلا... الواجب يناديا أيها العمدة... هيا يا سيادة المقُدم.

لم يستطع (شوقى) مواصلة صمته، فى طريق العودة، فسأله فى اهتمام:

- لقد باغتك ما حصلت عليه...أليس كذلك؟!

أومأ (على) برأسه، مغمغماً:

- أكثر مما تتصوَّر.

مال (شوقى) نحوه، يسأله فى اهتمام:

- إنه أمر يتعلق بجريمة القتل، التى لم تعثروا فيها على القتيل... أهذا صحيح.

أومأ (على) برأسه إيجاباً فى صمت، فتابع شوقى فى حماس:

- لقد تابعت أخبارها منذ فترة طويلة، وكانت قضية عجيبة، مليئة بالتعقيدات.

غمغم (على):

- بدت الدهشة واضحة، فى ملامح (شوقى) وصوته، وهو يقول:

ولكن كيف؟!... ألم تصدر المحكمة حكماً نهائياً بإعدام القاتل بالفعل؟!

تنهَّد (على)، وغمغم، بأسلوب يوحى بأنه يريد إنهاء الحوار:

- ليت الأمر اقتصر على هذا.

لم ينتبه (شوقى) إلى أسلوبه، وهو يسأله فى إلحاح:

- ماذا استجد فيها، ويستوجب إعادة فتحها، بعد حكم نهائى؟!

أجابه (على) فى اقتضاب، آملاً أن ينهى الحوار:

- الكثير.

هم (شوقى) بإلغاء سؤال جديد، لولا أن ارتفع رنين هاتف (على) فجأة، فاختطفه هذا الأخير من جيبه، وهو يقول فى لهفة:

- سيادة اللواء... هل من جديد؟!

بدا صوت مدير الأمن مفعماً بالانفعال، وهو يقول:

- (على).... مفاجأة لا يمكنك أن تتخيلُها.

سأله (على) فى لهفة:

- هل عثرتم على (سامى)؟!

أجابه بنفس الانفعال:

- بل عثرنا على الدليل الأكيد، الذى يحسم براءة (طارق بشير)، من تهمة القتل.

انعقد حاجبا (على)، وانتقلت إليه عدوى الانفعال، وهو يسأل:

- أى دليل؟!

بدا صوت مدير الأمن اكثر لنفعالاً، وهو يجيب:

- القتيل... (عادل إبراهيم)... شخصياً.

واتسعت عينا (على) عن آخرهما...

وخفق قلبه فى عنف...

فقد كانت الصدمة قوية...

جداً.

• • •

منتديات قلعة طرابلس
قسم الحصريات

الفصل الحادى عشر

لم ير (على) فى حياته كلها شخصاً، ارتسمت على وجهه علامات الحيرة والذهول، مثل ذلك الذى يطلق على نفسه اسم (عادل إبراهيم)، والذى جلس فى حجرة الاستجواب شارداً، يتطلّع إلى ما حوله فى شئ من الخوف، وكأنه يواجه الحياة لأوّل مرة...

وعندما دلف (على) إلى حجرة الاستجواب، التفت إليه الرجل فى ذعر عجيب، وكأنه يرى شبحاً، وحاول أن يتراجع بمقعده، لولا تلك الأغلال، التى تربط يده اليسرى بأحد أرجل المنضدة الثقيلة أمامه...

ولثوان، وقف (على) يتطلّع إليه فى صمت، وهو يسترجع كلمات مدير الأمن:

- بعضهم عثر عليه شارداً، منذ بضعة أيام، فى منطقة (حلوان)... لم يكن يعرف من هو، ولا كيف أتى إلى هذا المكان... ولقد سلمه بعضهم إلى قسم شرطة (حلوان)، وهناك، وكإجراء تقليدى، قاموا بأخذ طبعة بصماته، وتم إرسالها إلى قسم الأدلة الجنائية، وكانت المفاجأة...

"من أنت؟!..."

ألقى (على) السؤال على الرجل فى هدوء، على الرغم من ذلك التوتر العنيف، الذى يسرى فى كيانه، فغمغم الرجل، وكل خلجة من خلجاته، تشى بالرعب، مع صوته المرتجف:

- لست أدرى!

ظلّ (على) يحدّق فيه لحظات، محاولاً أن يستشف صدقه من عدمه، ثم اقترب منه فى بطء، وجلس على المقعد المواجه له، فبدت من الرجل حركة عصبية، وهو يقول فى رعب:

- هل ستفحصنى ثانية؟!

انقعد حاجبا (على)، وهو يسأله:

- افحصك؟!... وهل فحصك أحدهم من قبل؟!

بدت علامات الألم على الرجل، وهو يغمغم:

- لقد كان ذلك مؤلماً... مؤلماً للغاية.

ولم يفهم (على) ما يعنيه هذا!!...

وفقاً لما سمعه وعرفه من مدير الأمن، لم يؤذ أحد الرجل بلمسة واحدة، ولم يتعرّض سوى لفحص بصماته...

وهذا لا يؤلم، بأى حال من الاحوال...

لم يفهم، وعلى الرغم من هذا، فقد بذل جهداً خرافياً، للسيطرة على أعصابه، ولدفع أكبر قدر من الهدوء إلى صوته، وهو يقول:

- اطمئن... لن يفحصك احد.

ظلّ الرجل يحدّق فيه فى شك مذعور بضع لحظات، فرسم (على) ابتسامة باهتة على شفتيه، وهو يتمتم:

- اطمئن.

ظلّت قسمات الرجل على حالها بعض الوقت، فحافظ (على) على ابتسامته بصعوبة، حتى بدأت قسمات الرجل فى اللين، وغمغم فى حذر:

- اتعدنى بهذا؟!

أجابه فى خفوت:

- أعدك.

بدا وكأن الرجل يحاول استعادة هدوئه فى صعوبة، فسأله (على) فى حذر:

- هل سمعت من قبل اسم (طارق بشير)؟!

أطلّت حيرة حقيقية من عينى الرجل، وهو يتمتم:

- يلوح لى أننى قد سمعت هذا الاسم من قبل، ولكننى أجهل أين ومتى سمعته.

همّ (على) بقول شئ آخر، ولكن الرجل اندفع يضيف فجأة:

- رباه!... لقد فحصوه أيضاً.

انعقد حاجبا (على) فى شدة، وهو يقول، فى لهجة لم يستطع منع عصبيته من التسلّل إليها:

- إنك تكرّر هذا... من هؤلاء؟!... ولماذا يفحصونك أو يفحصونه.

استعادت ملامح الرجل كل فزعها، وهو يلوّح بذراعيه، هاتفاً:

- لا... لن أخبرك شيئاً.... أنت تسأل عما لا ينبغى أن تعرفه... لا... لا...

بدأ يصرخ على نحو متصل، وويضرب الهواء بذراعيه فى قوة هستيرية، مما جعل (على) يتراجع، ويحدّق فيه فى ذهول، ثم هب من مقعده، واندفع خارج الحجرة، يهتف بزملائه:

- فليستدع احدكم طبيباً.... الرجل مصاب بهياج رهيب، و...

لم يكن قد أتم عبارته، عندما شعر بذلك الدوى الهائل فى رأسه، قبل أقل من ثانية، من سطوع ذلك الضوء المبهر الرهيب، داخل حجرة الاستجواب، مقترناً بصرخة رعب هائلة مدوية، ختم بها الرجل داخلها صرخاته، التى توقفت بعدها تماماً...

وعلى الرغم من الضوء شديد السطوع، حمى (على) عينيه بذراعه، ثم اندفع عائداً إلى حجرة الاستجواب...

وفى نفس اللحظة، التى وطأتها فيه قدميه، تلاشى الضوء دفعة واحدة...

وعندما فتح عينيه، كانت أمامه مفاجأة مذهلة...

لقد كانت الحجرة خالية من البشر...

المنضدة الثقيلة والمقعدان كانا هناك...

وحتى ذلك القيد، الذى كان يربط معصم الرجل، ظلّ هناك، مغلقاً كما كان...

ولكن الرجل نفسه لم يكن هناك...

واتسعت عينا (على) عن آخرهما فى ذهول...

الحجرة لم يكن فيها أى مخرج آخر، سوى هذا الذى يقف عنده...

لا أبواب أخرى...

أو حتى نوافذ....

ولكن الرجل اختفى...

تماماً...

لحق به بعض الضباط فى هذه اللحظة، وهتف أحدهم فى ذهول:

- أين المتهم؟!

غمغم (على) يجيبه بنفس الذهول:

- اختفى.

انتقل ذهوله إلى كل الموجودين، وضابط آخر يغمغم:

- مستحيل!...

نفس الكلمة صرخ بها مدير الامن، عندما علم بالموقف، وبدا شديد العصبية، وهو يهتف مكملاً:

- كيف يمكن أن نشرح هذا للرؤساء؟!... سيتصوّرون أننا قد اطلقنا سراح المتهم.

أجابه (على) فى توتر:

- لا اعتقد هذا... أوّلاً لأنه لم يكن متهماً فى الواقع، وثانياً لأنه هناك أكثر من عشرة شهود على الموقف، وثالثاً لأنها ليست أول حادثة اختفاء فى هذه القضية، التى تكاد تصيبنى بالجنون...

بدا اليأس على وجه مدير الأمن، وهو يقول فى بؤس:

- كيف سنواجه الموقف إذن؟!...

أجابه (على) فى ضيق:

- لست اظن هذا الامر الأكثر أهمية الآن يا سيدّى، فنحن فى الواقع أمام مجموعة من الأحداث، التى قد تتكرّر على نحو كبير، لو أننا لم نتوّصل إلى تفسير لها.

قلب مدير الأمن كفيه فى يأس، وهو يقول:

- أى تفسير؟!...(طارق) اختفى داخل حجرة الإعدام، وأنشوطة الحبل محكمة حول عنقه، والمفتش (جمال) و(سامى) اختفيا من داخل سيارة مغلقة، والمتهم الأخير اختفى من حجرة الاستجواب، وترك قيده خلفه، وهو مغلق فى إحكام... عن أى تفسير تتحدّث يا رجل؟!..

أجابه (على) فى بطء:

- ربما كان تفسيراً يتجاوز عقولنا، أو قدرتنا على الفهم، أو....

تردّد لحظة، قبل أن يضيف فى حذر:

- أو تكنولوجيتنا.

حدّق فيه مدير الأمن فى دهشة، قبل أن يسأله:

- ماذا تعنى؟!

تردَّد (على) لحظة أخرى، ثم اندفع قائلاً:

- ربما هى تكنولوجيا جديدة لنقل البشر، يحاول بعضهم تجربتها على أرضنا لغرض ما.

حدَّق فيه مدير الأمن مرة أخرى، ثم قال فى عصبية:

- أى قول أحمق هذا؟!

بدا (على) شديد الجرأة، وهو يسأله:

- ألديك تفسير آخر؟!...

ظهرت الحيرة على وجه مدير الأمن، وهو يغمغم:

- لا يمكننى أن أورد هذا فى تقريرى.

تزايدت جرأة (على)، وهو يقول فى حزم:

- ولكن هذا ما حدث بالفعل، ومن الضرورى أن يعلم به المسئولون، وعلى أعلى مستوى؛ فقد يتحتم عليهم الاستعانة بجهات أخرى.

سأله مدير الامن فى توتر:

- مثل ماذا؟!..

هزَّ (على) رأسه، وهو يقول:

- لست أدرى؟!... ربما جهة فنية عليا، أو بعض كبار العلماء، أو جهاز المخابرات، أو...

قاطعه مدير الأمن فى حدة:

- هذا سيعنى فشلنا.

قال (على) فى سرعة:

- ولكنه قد يساعد على كشف الحقيقة.

انعقد حاجبا مدير الامن فى غضب، ولكن (على) تابع فى حزم:

- فمن يدرى من سيكون الضحية التالية.... ربما أنا، او....

صمت لحظة، وهو يتطلَّع إلى وجه مدير الأمن مباشرة، قبل أن يضيف بكل الحزم:

- أو أنت..

اتسعت عينا مدير الامن عن آخرهما، وأطلَّت منهما لمحة من الهلع، قبل أن يخفض رأسه، ويرتكن على سطح مكتبه بقبضته بضع لحظات، فى صمت تام، أدرك معه (على) أنه يدير الامر فى رأسه، ولقد كان محقاً فى هذا، فقد عاد مدير الأمن يرفع عينيه إليه، وهو يقول فى استسلام:

- أظنك على حق أيها الرائد.

شعر (على) بالارتياح، وهو يغمغم:

- هذا أفضل قرار تتخذه يا سيِّدى.

جلس مدير الأمن خلف مكتبه، وقد بدا أشبه برجل أصابه إعياء شديد، وهو يغمغم:

- دعنى أبحث فقط عن الوسيلة المناسبة لهذا.

أجابه (على) فى خفوت:

- وسيلة الشفافية والمصارحة يا سيدى.

هزَّ المدير رأسه، وهو يغمغم فى يأس:

- المسئولون لا يرون الامور، بالصورة التى تراها أيها الرائد.

غمغم (على):

- اجعلهم يرونها يا سيِّدى.

زفر مدير الامن فى توتر، مغمغماً:

- ساحاول.

مع إجابته، شعر (على) فجأة بنفس الدوى، الذى شعر به فى رأسه، قبيل اختفاء الرجل فى حجرة الاستجواب مباشرة، فاعتدل فى حركة حادة، جعلت مدير الأمن يسأله فى توتر شديد:

- ماذا حدث؟!

أجابه فى عصبية:

- أظن أنه ينبغى أن أعود لى حجرة الاستجواب فوراً.

مع عبارته، ارتفعت موجة من الهرج، خارج مكتب مدير الامن، واندفع أحد الضباط إليه دون استئذان، وهو يهتف فى انفعال شديد:

- ذلك الضوء سطع فى حجرة الاستجواب مرة أخرى، و....

لم ينتظر (على) انتهاء الضابط من عبارته، وإنما اندفع يعدو بكل قوته، عائداً إلى حجرة الاستجواب، وعندما وصل إليه، فى الطابق الاسفل، كان هناك عدد من الضباط يقفون ببابها، ويحدقون فى ذهول، ومن الواضح أن أحداً منهم لا يجرؤ، أو حتى يفكر فى دخولها...

ومتجاوزاً إياهم، اندفع (على) إلى داخل الحجرة، ثم توقَّف فجأة، واتسعت عيناه عن آخرهما...

لقد كان الامر يختلف تماماً عما تركه عليه...

كان هناك رجل آخر، فى نفس الموضع الذى كان فيه الرجل الذى اختفى...

رجل يجلس على نفس المقعد، ومعصمه داخل تلك الأغلال، المربوطة فى أحد أرجل المنضدة الثقيلة...

رجل يرتدى زياً مختلفاً، ورأسه ملقى على المنضدة، على نحو يوحى بأنه فاقد الوعى..

وبعد لحظة من التردُّد، اسرع (على) نحو ذلك الرجل، ورفع رأسه؛ ليلقى نظرة على ملامحه...

ثم ارتدَّ فى عنف، من أثر الصدمة...

فذلك الرجل لم يكن من يدَّعى أنه (عادل إبراهيم)...

بل كان شخصاً، لم يتخيَّل قط أن يراه فى هذا المكان...

ولا فى أى مكان آخر...

على الإطلاق.

• • •

الفصل الثانى عشر

كانت الأرض تدور، على نحو غير مألوف، حتى أن المفتش (جمال) شعر بأنه يسقط فى دوّامة طويلة...

وبطيئة...

و لوقت بدا له كالدهر، راح عقله يبذل جهده؛ ليتجاوز هذه الحالة...

ومن بعيد، بعيد جداً، سمع صوتاً يقول:

- استرخ، وسيمر كل شئ فى سلام.

بدا له الصوت مألوفاً إلى حد ما، ولكن عقله المشوّش عجز عن تمييزه جيداً...

ولقد حاول أن يقول شيئاً...

أى شئ...

أو أن يحُرك حتى ساقيه أو ذراعيه...

ولكنه لم يستطع...

كان كمن اصيب بشلل رباعى كامل، يسيطر على صفاء ذهنه، فى حين كان ذلك الصوت يأتى من منطقة أقرب، قائلاً فى هدوء:

- لا تقاوم... المقاومة تزيد الأمر سوءاً... استرخ وسيصفو ذهنك بعد أقل من دقيقة واحدة..

ولم يكن أمام (جمال) سوى اتباع النصيحة...

لذا، فقد استرخى تماماً...

ومع استرخائه، بدأ يشعر بالدماء تسرى فى ساقيه وذراعيه،

فحُرك اصابعه فى حذر، وعندما استجابت له، أغلق عينيه، مغمغماً:

- حمداً لله.

شعر بيد حانية تلابُت على ذراعه، وسمع ذلك الصوت على مقربة منه، يقول فى ارتياح:

- حمداً لله على سلامتك.

فتح عينيه، وحدّق فى الرجل، الذى انحنى فوقه، وانعقد حاجباه، وهو يغمغم فى ضعف:

- أنت ذلك الرجل.

ابتسم الرجل، وهو يقول:

- نعم... أنا (رأفت فهمى)... أستاذ النسبية الحديثة.

هزّ (جمال) رأسه فى ضعف، وهو يقول:

- من السخف الاستمرار فى هذه التمثيلية... لقد تحرينا الأمر، ولم نجد جامعة بهذا الأسم، ولا أستاذ يحمل أسمك الزائف.

ابتسم الدكتور (رافت)، وهو يقول:

- ربما ليس فى زمنكم.

وتفجُرت العبارة فى رأس (جمال) كالقنبلة...

ليس فى زمنكم؟!... ماذا يعنى بقوله هذا؟!...

أهذا هو تفسير كل الغموض؟!...

اهذا هو السر الغامض؟!...

السفر عبر الزمن؟!...

رباه!... أى خيال يعيش؟!...

إنه ليس حقيقة حتماص...

إنه كابوس...

كابوس لن يلبث أن يستيقظ منه؛ ليواجه عالمه الحقيقى...

فكرة الكابوس جعلته يغلق عينيه مرة أخرى؛ محاولاً العودة للنوم، ولكنه شعر بيد الدكتور 0رأفت) تربّت على ذراعه مرة أخرى، مع صوته الهادئ، وهو يقول:

- لقد اربكك الأمر... أليس كذلك؟!

عاد (جمال) يفتح عينيه، وهو يقول فى عصبية:

- ما الذى تحاول فعله يا رجل؟!

ناوله الدكتور (رأفت) كوباً صغيراً، وهو يقول:

- ارتشف هذا، وسيصفو ذهنك تماماً، ويستعيد جسدك نشاطه، وعندئذ يمكننا التحُدث.

تردُد (جمال)، وهو ينظر إلى الكوب، فعاد الدكتور (رأفت) يبتسم، وهو يقول:

- سل نفسك: ماذا منعنى من قتلك، بدلاً من إفاقتك، لو أننى أسعى إلى هذا؟!

كان سؤاله منطقياً، فالتقط (جمال) الكوب، وارتشف محتوياته رشفة واحدة...وبدا ما حدث له بعدها، وكأنه معجزة...

لقد صفا ذهنه بغتة، ودب النشاط فى جسده كله، وكأنما تلقى جرعة سحرية، فهب جاساً على طرف الفراش شديد النعومة، الذى يجلس عليه، وهو يقول فى حزم:

- أحتاج إلى كثير من التفسيرات.

مع الاحرف الاخيرة من عبارته، شعر وكأنه ينزلق من فوق الفراش الناعم، فاسرع الدكتور (رأفت) يدعم جسده، وهو يقول:

- سيمضى وقت، قبل أن تتأقلم على تقنياتنا.

فى تلك اللحظة فقط، ومع عبارة الدكتور (رأفت)، انتبه (جمال) إلى أنه لم يكن يرقد على فراش حقيقى، وإنما على وسادة هوائية عجيبة...

وسادة غير مرئية، ولكن لها ملمس شديد النعومة، صنعته زخّات مدروسة، من الهواء، فى اتجاهات أفقية ورأسية...

وفى ذهول، غمغم (جمال):

- رباه!... إذن فهذا حقيقى.

تمتم الدكتور (رأفت):

- لابد وان تتعايش مع هذه الحقيقة.

رفع (جمال) عينيه إليه، فى انزعاج واضح، وهو يسأله:

- فى أى زمن نحن؟!

أجابه الرجل فى هدوء:

- زمن يفوق عصرك بقرن من السنين، وألف قرن على الأقل، من التطوُّر العلمى والتقنى.

تلفت (جمال) حوله فى ذهول، ورأى ان كل ما حوله يؤكُد كلمات الرجل تماماً...

الجدران المخملية...

الشاشة ثلاثية الأبعاد، التى تحتل جدار كامل...

الأجهزة الصغيرة، فى كل مكان...

وحتى الأثاث المتناثر فى الحجرة الواسعة، التى يقفان فيها...

كل شئ كان مستقبلياً، بكل وضوح...

درات رأسه، مع فكرة أنه قد انفصل عن زمنه بقرن من الزمان، فوضع يده على جبهته، وكاد يسقط مرة اخرى على الوسادة الهوائية، ولكن الدكتور (رأفت) أمسك ذراعه، وهو يقول:

- هيا... تجاوز الموقف، فلدينا الكثير لنتحُدث عنه.

هزَّ (جمال) رأسه، وهو يقول:

- من العسير استيعاب كل هذا.

أجابه الدكتور (رأفت) فى حزم ك

- ولكن تاريخك يتحُدث عن عبقريتك، فى استيعاب مالا يمكن استيعابه.

غمغم (جمال) فى دهشة:

- التاريخ.

ربَّت الدكتور (رأفت) على كتفه، قائلاً:

- اطمئن... إنه تاريخ مشرِّف للغاية.

تمتم (جمال) فى مرارة:

- وهو ينتهى عند لحظة اختفائى من عصرى بالطبع.

صمت الدكتور (رأفت) لحظة، ثم قال:

- إنك لم تستوعب الأمر بعد.

التقط (جمال) نفساً عميقاً، وقال:

- لقد استوعبت بعضه على الأقل.

تطلَّع إليه الدكتور (رأفت) لحظات، ثم تراجع ليجلس على مقعد هوائى، وهو يسأله:

- وما الذى استوعبته بالضبط؟!

شد (جمال) قامته، وكأنما يقف أمام أحد رؤسائه، وقال فى حزم:

- أحدكم يعبث بزمننا، وكأنه يمارس لعبة كبيرة، ويتصوَّر نفسه (روبين هود)*، الذى سيحل مشكلات الماضى، التى سجَّلها تاريخكم، فينتقل من زمنكم إلى زمنى؛ ليقوم بأعماله البطولية

ظلَّ الدكتور (رأفت) يتطلَّع إليه لحظات فى صمت، قبل أ يقول:

- استنتاج تنقصه الدقة العلمية؛ فالعبث بالماضى شديد الخطورة على الحاضر والمستقبل، وهذا ما نطلق عليه اسم (تأثير الفراشة)؛ إذ لو سافر شخص إلى الماضى، وقتل فراشة واحدة، قد يعود إلى زمنه، فيجد عالماً يختلف كل الاختلاف عما تركه؛ إذ أن الفراشة الواحدة، من الناحية العلمية، هى جزء من دورة الطبيعة الكاملة، وعندما تقتلها، فأنت تعُدل الدورة الحياتية؛ لتصنع دورة جديدة مختلفة، ذات نتائج تترتَّب على بعضها البعض، على نحو شديد التعقيد، مما يؤثر على كل دورات الحياة، المرتبطة بدورة الحياة الرئيسية للفراشة، بما فيها دورة حياة الإنسان، وتطوُّر الطبيعة من حوله*

التقى حاجبا (جمال)، وهو يقول فى عصبية:

- هل تتوقَّع منى استيعاب هذا؟!

أشار الدكتور (رأفت) بيده، وهو يقول فى بساطة:

- كُلا بالطبع.

ثم استدرك فى اهتمام:

- على الرغم من انها قديمة للغاية، وتعود إلى ما قبل الزمن، الذى التقينا فيه"

هزَّ (جمال) رأسه، وهو يقول بنفس العصبية:

- ربما... هذا أمر يهم العلميين فحسب.

تراجع الدكتور (رأفت) فى مقعده، وهو يقول فى اهتمام:

- هذا صحيح.

صمت (جمال) يتطلَّع إليه لحظة، ثم قال، محاولاً - كعادته- دفع أكبر قدر من الحزم إلى صوته:

- ولكن لو انها ليست لعبة زمن، فما تفسير ما يحدث.

اعتدل الدكتور (رأفت) فى اهتمام، عندما سمع السؤال، وأشار بيديه معاص فى حماس، وهو يقول:

- عندما قاطعونا هناك، كنت أخبرك أنه لدى أحد تلامذتى، يدعى...

أشار (جمال) بيده يقاطعه، قائلاً:

- آه... تذكَّرت... يمكننى استنتاج الأمر، من هذه النقطة.

نظر إليه الدكتور (رأفت) فى دهشة، استغرقت لحظات قليلة، قبل أن يعود إلى التراجع فى مقعده، وهو يشير إليه بكفه، قائلاً:

- فليكن.

أجابه (جمال) فى حزم:

- من الواضح أن تلميذك هذا يعبث بلعبة الزمن، التى تتحدث

عنها، مثيراً حالة من الفوضة الزمنية، التى يمكن أن تفسد زمنك، استناداً إلى تأثير الفراشة هذا، الذى تتحدث عنه، وانك تسعى خلفه؛ لإصلاح ما يفعله، حفاظاً على زمنك.

لسبب ما، شعر (جمال) بشئ من الفخر فى أعماقه؛ لأنه استطاع التوصل إلى استنتاج كهذا، فى زمن يفوقه بقرن كامل، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة واثقة، وهو يتطلَّع إلى وجه الدكتور (رأفت) مباشرة؛ لرصد ردود افعاله...

ولكن الرجل ظلَّ صامتاً لحظات طوال...

وظلَّ يتطلَّع إلى وجه (جمال)، دون أية تعبيرات، حتى ان هذا الاخير اضاف فى حسم:

- استنتاج صحيح... اليس كذلك؟!.

واصل الدكتور (رافت) صمته، لبضع لحظات أخرى، قبل أن يقول:

- كم تدهشنى تلك الصفات، التى اضفتها عليك كتب التاريخ، حتى تصنع منك تلك الأسطورة الأمنية، التى بهرتنا منذ حداثتنا...

لم يستوعب (جمال) جيداً، ما إذا كانت العبارة مدحاً أم ذماً، إلا أن الكدتور (رأفت) مال إلى الامام، وهو يضيف بشئ من الصرامة:

- إنك لا تتبع حتى أى منهج علمى... لقد بدأت استنتاجك، قبل أن تمنح نفسك فرصة الحصول على المعلومات الكافية.

ارتبك (جمال) لحظة، وغمغم فى توتر:

- أهو استنتاج صحيح أو لا؟!

أشار الرجل بيده، قائلاً:

- ربما فقط، فى الجزء الخاص بالفوضى الزمنية.

ثم انعقد حاجباه فى شدة، وهو يضيف:

- الفارق أننى وتلميذى لا نصنعها، وإنما نقاومها.

اتسعت عينا (جمال) قليلاً، ولام نفسه بشدة، على تسُرعه الواضح فى الاستنتاج، والذى جعله يقف هذا الموقف....

رجل المستقبل هذا كان على حق...

إنه لم ينتظر حتى يحصل على كافة المعلومات بالفعل...

ربما لأنه أراد أن يبهر الرجل...

أو أن يحافظ على صورته، التى أخبره أنها دوُنت فى كتب التاريخ...

وهذا خطأ...

أكبر خطأ...

اتجه مع شعوره بالخجل إلى مقعد هوائى آخر، وجلس عليه فى حذر؛ خشية السقوط أرضاً، ولكن المقعد استقبله فى نعومة مدهشة، بثّت فى جسده شعوراً عجيباً بالاسترخاء، فاستقر فوقه فى ارتياح، وهو يسأل الدكتور (رأفت):

- أخبرنى ما لديك أوّلاً إذن.

استرخى الدكتور (رأفت) بدوره فى مقعده، وهو يقول:

- كما أخبرتك فى البداية... لدى تلميذ نجيب عبقرى، يدعى (هيثم)، انبهر منذ دراسته للعلوم، بفكرة آلة الزمن، التى اخترعها الروسى (تشيرنوبروف) عام 1997م، وانهمك لسنوات فى مراجعة كل معادلاته وتجاربه، التى لم تسفر، طوال ما يقرب من تسعين عاماً من التطوُّر، إلا عن نقل الأشياء الجامدة، بدءاً من العملات الصغيرة، وحتى بعض الآلات البسيطة، ولم تنجح أبداً فى نقل أى كائن حى

عبر الزمن، حتى الحشرات الصغيرة... كل ما حدث فى تطوُّر، فى آلة زمن (تشيرنوبروف)، خلال تسعة عقود، هو أنها استطاعت التحكُّم فى الزمن، الذى ستنتقل إليه الأشياء الجامدة، وبعد ان كانت تنقلها إلى المستقبل فحسب فى البداية، صار من الممكن مع تطويرها، تحقيق نظرية النسبية، ونقلها عبر الماضى والمستقبل معاً.

غمغم (جمال):

- كأننى استمع إلى ملخص أحد روايات الخيال العلمى.

تجاهل الدكتور (رأفت) ملحوظته تماماً، وواصل فى هدوء:

- وذات يوم، منذ أقل من خمسة أعوام من زمنى، توصل (هيثم) إلى المعادلة الناقصة، فى آلة (تشيرنوبروف)، واشتركنا معاً فى صنع أوّل آلة زمن، يمكنها نقل الكائنات الحية، ولقد أجرينا تجاربنا الأوّلية، على نقل كائنات حية بسيطة عبر الزمن، إلى فترات محدودة من الماضى والمستقبل، وكُللت تلك التجارب بالنجاح، وهنا انتقلنا إلى كائنات أرقى، وأرقى، وتطوُّرات المعادلة الجديدة مرة، وثانية، وثالثة، حتى امكننا ذات يوم، منذ عامين تقريباً، من نقل أحد القرود العليا، إلى الماضى والمستقبل، دون ان يتعرَّض سوى لبعض الوهن، الذى أمكننا علاجه، بذلك العقار الذى تناولته، وأعاد إليك نشاطك، بعد رحلتك الزمنية.

غمغم (جمال) فى توتر:

- أتعنى أننى قد تناولت عقار قرود؟!

مرة أخرى، تجاهل الدكتور (رأفت) ملاحظته، وهو يتابع:

- أدركنا عندئذ ان تجاربنا قد نجحت، وبدأنا نستعد لإعلانها، فى مؤتمر كونى شامل، عندما حدث ما حدث.

العبارة الاخيرة جعلت (جمال) يعتدل، ويسأله فى اهتمام:

- وماذا حدث؟!

زفر الدكتور (رأفت) زفرة حادة، تشف عن ذلك التوتر العنيف، الذى سرى فى أعماقه، وقال:

- سأخبرك... ولكن حاول أن تستوعب الأمر، فقد استغرقنا نحن شهراً كاملاً؛ لفهمه واستيعابه.

وعندما بدأ يخبره، اتسعت عينا (جمال) عن آخرهما...

فقد كان ما يخبره به، يتجاوز حتى أفلام الخيال العلمى...

كان بحق مذهلاً...

للغاية.

• • •

الفصل الثالث عشر

" مستحيل!!..."

غمغم (على) بالكلمة فى ذهول، وهو يحدِّق فى الرجل، الذى حلَّ محل من يدعى أنه (عادل إبراهيم)، فى حجرة الاستجواب...

كان فاقداً لوعيه تماماً، ووجهه شديد الشحوب، ومعصمه داخل الطرف الثانى للأغلال المعدنية القوية، التى مازال طرفها الأوَّل ملتفاً حول أحد مقاعد المنضدة الثقيلة...

وكان هذا فى حد ذاته مذهلاً...

لقد تحرَّر الأوَّل من طرف الأغلال القوية المحكمة، بعد دفقة من الضوء شديد السطوع، ثم عاد إليها الثانى، وهى مازالت محكمة، فى الموضع نفسه...

كان شيئاً أشبه بالخيال...

أو بالسحر...

أما الرجل الذى أمامه، فقد كانت عودته أشد غموضاً من اختفائه...

كان (طارق بشير)...

(طارق) نفسه، الذى اختفى من حجرة إعدامه، وعاد إلى حجرة استجواب مغلقة...

ولثوان طوال، ظلَّ (على) يحدِّق فى وجه (طارق) ذاهلاً، قبل أن يتمتم:

- هذا الرجل بحاجة إلى انعاش... احضروا أحد الاطباء.

غمغم أحد الضباط من خلف، فى ذهول يفوقه:

- ولكنه...

قاطعه (على) فى حدة:

- احضروا أحد الاطباء.

لم يمض وقت طويل، حتى كان هناك طبيبان يفحصان (طارق)، فى حين وصل مدير الأمن بنفسه إلى حجرة الاستجواب، وحدّق فيه فى ذهول، مغمغماً:

- لماذا عاد؟!... سيواجه حكم الإعدام مرة أخرى.

غمغم (على) فى عصبية:

- المهم كيف عاد؟!...

نقل مدير الأمن بصره إليه، ثم عاد ببصره إلى (طارق)، قبل أن يستعيد تماسكه نسبياً، ويقول:

- سأبلغ المسئولين أننا قد أعدنا السجين الهارب.

لم يكن هذا يتفق مع التسلسل القيادى، ولكن (على) قال فى حزم:

- ليس بعد.

التفت إليه مدير الأمن فى حدة، قائلاً فى صرامة:

- هذا ليس قرارك... لقد اختفى السجين من حجرة الإعدام، وها هو ذا أمامنا فى حجرة الاستجواب، وهذا ينهى القضية.

استدار إليه (على) فى بطء، وقال:

- وماذا لو اختفى مرة أخرى، بعد ان نبلغ المسئولين؟!

امتقع وجه مدير الامن، وهو يقول فى عصبية:

- سنحيطه بحراسة مشدّدة، و...

اكتفى (على) بالنظر إلى عينى مدير الأمن فحسب، فبتر هذا الاخير عبارته، وتمتم:

- ولكن ماذا يفيدنا اخفاء وجوده هنا؟!

أشار (على) إلى (طارق)، الذى لايزال فاقد الوعى، وقال:

- ربما عاد بوسيلة ما، ولكن المنتش (جمال) والرائد (سامى) لم يعودوا بعد، وربما يكمن حل اللغز كله فيما لدى هذا الرجل من معلومات.

ساله مدير الأمن فى حذر:

- سنستجوبه أوّلاً إذن، ونستخلص كل ما لديه من معلومات، ثم...

لم يجد ما يكمل به عبارته، فبترها، ولاذ بالصمت لحظات، قبل أن يقول فى حدة:

- أخبرنى، عندما تنتهى من أمره... إنها قضيتك الآن.

قالها، واندفع يغادر المكان فى عصبية، فراقب (على) ابتعاده لحظة، ثم التفت إلى الطبيبين، متسائلاً:

- ماذا لديكما؟!

أجابه أحدهما:

- من الواضح أنها حالة إرهاق شديدة... لقد عانى هذا الرجل الكثير، واظن أنه سيتحتم نقله إلى وحدة العناية الفائقة.

قال أحد الضباط فى عصبية:

- كُلا... هذا الرجل لن يخرج من هنا.

ولكن (على) التفت إليه، قائلاً فى صرامة:

- لن يصنع هذا فارقاً.

ثم أضاف، وهو يضغط حروف كلماته؛ لتحمل المعنى الذى يقصده:

- لن يمكننا منعه فى كل الاحوال.

تراجع الضابط، وقد ادرك ما يعنيه هذا، فى حين عاد (على) يلتفت إلى الطبيبين، قائلاً فى حزم:

- فليكن... سنستدع سيارة إسعاف، وساصحبه بنفسى طوال الوقت.

لم تستغرق سيارة الإسعاف وقتاً فى الحضور، وسرعان ما نقلت (طارق) الفاقد الوعى، مع احد الطبيبين والرائد (على)، إلى مستشفى الشرطة فى حى (العجوزة)، حيث تم وضعه فى حجرة العناية الفائقة، وتساءل الطبيب، وهو يغرس إبرة نقل المحاليل المستديمة فى احد أوردته:

- ألا ينبغى وضع حراسة مشدَّدة على الحجرة؟!

هزَّ (على) رأسه نفياً، وأجاب فى حزم مقتضب:

- كلا.

قالها، ووقف يراقب الأطباء، وهو يتخذون ما يلزم لإسعاف (طارق)، وتوصيل جسده بكل اجهزة القياس الحيوية، ثم لم يلبث أن سأل فى اهتمام:

- هل يعانى من الإرهاق فحسب، أم أنه قد تعرض إلى شئ من التعذيب، أو الفحص المؤلم، على نحو أو آخر؟!

التفت إليه الطبيب فى حذر، يسأله:

- هل تحاول اتهام احد زملائك؟!

أجابه (على) بكل صرامة:

- سالتك سؤالاً محدوداً.

التفت الطبيب إلى جسد (طارق)، يفحصه بعينيه فى سرعة:

- لا يمكننى الجزم الآن...هناك علامات حبل، على طرف عنقه، ربما تعنى أن أحدهم حاول خنقه، وهناك آثار ضعيفة على بطنه وصدره، تبدو أشبه بلدغات بعوض ضخم الحجم، أو احد الحشرات المشابهة، ولكننى لم أرى مثلها من قبل.

عاد (على) يسأله:

- هل من وسيلة لفحص هذا؟!.

هزَّ الطبيب كتفيه، وقال:

- هناك وسائل عدة هذه الايام، بدءاً من الاشعة العادية، وحتى الأشعة المقطعية، والرنين المغنطيسى.

سأله (على) فى اهتمام:

- ومتى يمكننا استخدام هذه الوسائل؟!

أجابه الطبيب فى سرعة:

- عندما يستعيد وعيه.

بدا سؤال (على) يائساً، وهو يقول:

- ومتى يحدث هذا؟!

رفع الطبيب عينيه لحظة، إلى شاشات أجهزة القياس الحيوية، ثم أجاب:

- كل ما نملكه هو أن ننتظر.

حمل صوت (على) ضيقه، وهو يغمغم:

- فليكن.... سننتظر.

فى نفس اللحظة، التى نطق فيها عبارته، كان النقيب (أنور)، معاون المباحث، يتناول فنجان القهوة الثالث، فى أقل من ساعة واحدة؛ محاولاً التغلُّب على ذلك الصداع الشديد، الذى ينتابه طوال الوقت، منذ سطع ذلك الضوء شديد الابهار فى وجهه، عندما كان يقف مع الرائد (سامى)، فى تلك المنطقة المهجورة...

كان صداعاً لم يشعر بمثله من قبل، فى حياته كلها، لا يسيطر على عقله فحسب، بل يمتد إلى كيانه كله تقريباً...

اضف إلى هذا تلك الكوابيس العجيبة، التى يراها كلما أغلق عينيه، حتى ولو لم يكن نائماً... كوابيس يرى نفسه فيها فى مكان عجيب، أشبه بغابة من الكريستال، وهناك اشياء شبه شفافة تتحرُّك بينها، واحد تلك الاشياء يواجهه مباشرة، ويشير إليه فى صرامة وتعال، وكأنه يامره بالركوع امامه...

والعجيب أنه، حتى فى كوابيسه، لم يطع هذا الامر قط...

وفى كل مرة، يرفض فيها طاعته، كان ذلك الصداع يزداد شدة...

ويزداد...

ويزداد...

ولقد اختبر كل أنواع المسكِّنات المعروفة، حتى تلك المحظور تداولها، ولكنها لم تات بأية نتائج، مع هذا الصداع المؤلم...

وفى بعض الاوقات، كانت تراوده فكرة الخضوع...

إنه مجُرد كابوس، ولن يضيره هذا...

ولكن شيئاً ما فى اعماقه كان يرفض...

وبشدة...

فيتزايد ألم الصداع أكثر...

وأكثر...

وأكثر...

واليوم بالتحديد، قرُر لأن يذهب لزيارة مستشفى الشرطة؛ لفحص رأسه، ومعرفة سبب هذا الصداع، الذى أصابه بالإرهاق الشديد...

ربما عرفوا أسبابه، ووجدوا له علاجاً طبياً...

أو نفسياً...

من يدرى؟!..

انتهى من ارتشاف فنجان القهوة، ثم نادى جندى مكتبه، ونهض قائلاً:

- اخبر النقيب (أسعد) أن يحل محلى اليوم؛ لأننى ذاهب فى مأمورية خاصة.

قالها، واصرف مباشرة، دون حتى ان ينتظر إبلاغ زميله، واتجه على الفور إلى مستشفى الشرطة، حيث فحصه أحد الاطباء جيداً، واجرى له بعض الفحوص الأوُلية، ثم هزَّ رأسه، وهو يطالع كل النتائج، وقال:

- الواقع أنه لا يوجد سبب عضوى واضح، لما تعانيه أيها النقيب.

غمغم (أنور) فى ضيق:

- ولكن الصداع يكاد يقتلنى، وتلك الكوابيس....

لم يكمل عبارته، ولكن الطبيب فهم ما يعنيه، فقال:

- ربما تعانى من مشكلة ما فى عملك، أو فى حياتك الخاصة، ولكننا لن نجزم بهذا قبل أن نجرى فحصاً لدماغك، بالأشعة المقطعية أوّلاً.

أومأ (أنور) برأسه إيجاباً، وقال:

- أنا مستعد لكل أنواع الفحوص، لو انها ستنهى هذا الألم.

التقط الطبيب سمّاعة الهاتف الداخلى، وهو يقول:

- فليكن... لو استطعنا تحديد موعد اليوم، فسنجريها على الفور.

كان الامر متاحاً بالفعل، لذا فقد تم تجهيز حجرة الأشعة المقطعية، ورقد (أنور) على السرير المخصّص للفحص، وبدأ الجهاز عمله بالفعل، وأغمض (أنور) عينيه، محاولاً أن يسترخى خلال الفحص؛ لمقاومة ذلك التوتر، الذى يشعر به دوماً، فى المنشأت الطبية...

وعلى الرغم من عدم منطقية هذا، فقد هاجمه ذلك الكابوس، فور أن أغلق عينيه...

تلك الغابة الكريستالية...

والاجسام شبه الشفافة...

وذلك الذى يامره بالخضوع...

ولكن الصورة هذه المرة كانت اوضح...

وبكثير...

جداً...

ولقد آثار هذا داخله موجه فزع عجيب...

فزع جعله يحاول فتح عينيه، للخروج من هذا الكابوس الرهيب...

ولكن العجيب أنه عجز عن هذا...

كان الجهاز يواصل عمل الرسم المقطعى لمخه، وهو راقد فى سكون، لا يوحى قط بذلك الصراع المستميت فى أعماقه...

لقد كان يقاتل بشدة، من اجل هدف بسيط للغاية، لأى إنسان عادى...

لفتح عينيه...

فقط...

وكان من الواضح انه، وعلى الرغم من إجهاده الشديد، لا يقاتل بجسده...

وإنما بعقله...

بعقله فقط...

ورويداً رويداً، راحت تلك الصورة تتضح فى أعماقه أكثر وأكثر...

وبدأت تلك الاجساد شبه الشفّافة، تتخذ تكويناً واضح المعالم...

وكان تكويناً يفوق ما كانت عليه إثارة للخوف...

أما ذلك الذى يأمره بالخضوع، فقد ظهرت له عينان كبيرتان، تلتهمان الجزء الأعظم من رأسه الضخم...

ولقد بدا له، فى كابوسه المخيف، أن العينين تتسعان...

وتتسعان...

وتتسعان...

ومع اتساعهما، كانت قدرته على المقاومة تضعف...

وتضعف...

وتضعف...

" لقد انتهينا..."...

اخترقت الكلمة أذنيه، فانتزعته من كابوسه دفعة واحدة، وجعلته يفتح عينيه فى بطء، وهو يقول:

- حقاً!

نطقها فى هدوء عجيب، كما لو أنه لم يعان ما عاناه منذ قليل، ونهض بنفس الهدوء؛ ليغادر جهاز الفحص، والطبيب يقول:

- مبدئياً، تبدو الامور كلها بخير، فيما عدا أن الجسم الصنوبرى، فى مؤخرة المخ، يبدو أكبر قليلاً من المعتاد، ولكنه لا يحوى أية آثار، لأية اختلافات أو تشوهات... باختصار، ليست هناك أسباب عضوية للصداع، وانصحك باستشارة طبيب نفسانى.

بدت ابتسامة (انور) هادئة، وربما أكثر مما ينبغى، وهو يقول:

- بالتاكيد..

غادر حجرة الفحص فى هدوء عجيب، يتنافى مع ذلك التوتر الشديد، الذى دخلها به، وراح يسير فى طرقات المستشفى فى ثقة وسرعة، وكأنه يتجه نحو هدف بعينه، يعرفه مسبقاً، ويحفظ مساره عن ظهر قلب...

وفى الطابق الذى يحوى قسم العناية الفائقة، توقف، وتحسس مسدسه، ثم اتجه إليه وعبر مدخله فى خطوات حاسمة، فاستوقفه أحد مرضى القسم، قائلاً:

- معذرة يا سيدى، ولكن هناك زى خاص لـ...

لم يمنحه (انور) فرصة إكمال العبارة، وهو يتجاوزه فى خطوات أقرب إلى العدو، متجهاً نحو الحجرة التى يرقد فيها (طارق)، والتى تبعد ما لا يزيد عن خمسة أمتار، وسحب مسدسه، وهو يضرب باب الحجرة بقدمه، فانطلقت صرخة مدوية، من ممرضة فى الممر، وتراجع الممرض مذعوراً، و...

ودوت الرصاصات...

فى عنف...

• • •

الفصل الرابع عشر

لم يستطع المفتش (جمال) استيعاب ذلك الأمر فى سهولة أبداً...

لقد شعر برأسه يدور فى عنف، وهو يستمع إلى الدكتور (رأفت)...

فما قاله، كان عسير الاستيعاب فى زمنه...

وربما فى أى زمن آخر...

ولقد ظل صامتاً ذاهلاص، طوال حديث الدكتور (رأفت)، وواصل بقاءه على هذا الحال، حتى بعد أن أنتهى الرجل من روايته، وراح يحدِّق فيه غير مصدِّق، حتى قال الرجل فى هدوء:

- هل ترغب فى ان أعيد عليك الامر مرة أخرى؟!

أومأ (جمال) برأسه فى بطء، وهو يقول:

- أرجوك.

التقط الرجل نفساً عميقاً، ثم بدأ يعيد روايته كلها فى صبر، قائلاً:

- فى البداية، بحثنا عن متطوِّع، للقيام بأوَّل رحلة زمنية بشرية، وبدأ (هيثم) فى إعداد المعادلات اللازمة؛ لنقله إلى نقطة بعيدة فى الماضى، وإعادته بعد زمن محدود، وبينما يجرى استعداداته الأولى، لاحظ خللاً عجيباً فى الترددات، التى ترصدها آلة الزمن، عند بدء تشغيلها، وما أثار حيرتنا معاً، هو ان ذلك الخلل لم يكن ثابتاً أو منتظماً، بل كان يظهر ويختفى، بين الحين والحين، فأوقفنا تجربة الرحلة الزمنية البشرية، ورحنا ندرس ذلك الخلل العجيب، وهنا صدمتنا المفاجأة.

غمغم (جمال)، وكأنه يحاول إقناع نفسه بما يسمعه:

- قراصنة الزمن.

أومأ الدكتور (رأفت) برأسه، قائلاً:

- نعم... كائنات عجيبة، هى مزيج من المادة والطاقة، على نحو لم نعرفه أبداً فى عالمنا، وهى تسبح فيما نطلق عليه اسم (الزمكان)، أى عبر الزمان والمكان معاً... لم ندر أبداً إلى أى عالم تنتمى، أو إلى أى بعد، أو حتى إلى أى زمن، ولكننا رصدناها، وأدركنا، بوسائل علمية سيعجز حتى أكثر علماء عصرك عبقرية عن استيعابها، انها كائنات شريرة النزعة، تسعى للسيطرة على الحضارات المختلفة، وإعادة توجيهها؛ لخدمة أغراضها الشريرة، أو لتدميرها تماماً، وكأن الدمار والخراب هما غايتها الاسمى.

غمغم (جمال)، مسترجعاً ما سمعه من قبل:

- إذن فقد كشفتم تلك الكائنات الزمنية، وأدركتم، بوسائلكم التى أعجز عن استيعابها، أنها تسعى وراء زمنى بالتحديد.

أشار الدكتور (رأفت) بسبَّابته، قائلاً:

- بالضبط... كشفنا هذا، ولكننا عجزنا عن معرفة التفاصيل، عن كيفية سيطرتها، أو موعد ذلك، ولكننا، وبمزيد من الدراسات، علمنا أن تكوينها لا يسمح لها بالتواجد فى عالمنا؛ للسيطرة عليه، وان هذا يتعلَّق بتكوينها الاساسى، الذى يتعارض مع قوانين الفيزياء لدينا؛ لذا فهى تسعى للسيطرة على بعض الافراد، وتوجههم إلى أهدافها الشريرة.

التقط (جمال) نفساً عميقاً، محاولاً استيعاب كل هذا الكم من المعلومات، الذى بدا له أعجب من كل روايات الخيال العلمى، التى شاهدها على الشاشة، وأكثر تعقيداً منها ألف مرة، ثم قال فى بطء:

- ولهذا أرسلتم ذلك العميل، من زمنكم إلى زمنى.

تنهد الدكتور (رأفت)، وقال:

- فى البداية، حاولنا إقناع المسئولين بالخطر القادم، وبأن السيطرة على ماضينا تهدِّد حاضرنا، وربما حضارات الارض كلها، ولكنهم، وكأى مسئولين، أرادوا دليلاً قاطعاً، لم نكن نمتلكه؛ نظراً لأن تجاربناووسائلنا كانت فريدة فى عصرنا، ولم يتفق معظم العلماء مع نتائجها، لذا كانت هناك حتمية أن نقوم بالأمر بأنفسنا، مع شعورنا بمسئوليتنا الهائلة عن حاضرنا، والتى تمتد إلى زمنك أيضاً.

التقط (جمال) نفساً آخر أكثر عمقاً، قبل أن يقول:

- هذا ما أخبرتنى به حتى الآن، وأنا أحاول بالفعل استيعابه فى صعوبة، ولكن تبقى بعض التفاصيل، التى تهمنى معرفتها.

أشار الدكتور (رأفت) بكفه، قائلاً:

- سل ما بدا لك.

مال (جمال) نحوه، يسأله فى اهتمام:

- اهذا العميل هو (طارق بشير)؟!

صمت الدكتور (رافت) لحظات، قبل أن يجيب فى حزم:

- كلا.

ثم اعتدل على مقعده الهوائى، وهو يتابع فى اهتمام:

- (طارق) لم يكن عميلنا، بل عميلهم.

تراجع (جمال) فى حركة حادة كالمصعوق، وهو يهتف:

- عميلهم؟!

أومأ الدكتور (رأفت) برأسه إيجاباً، واستطرد:

- لقد كشفوا أمرنا، كما كشفنا أمرهم، فمن الواضح أن تكنولوجيتهم أيضاً شديدة التطوُّر، وعلموا أن رجلنا قد رحل إلى عالمكم؛ ليبحث عن وسيلة لمنع سيطرتهم عليه، ولما كان تكوينهم يمنعهم من التواجد على أرضنا، فقد استخدموا تكنولوجيتهم المتطوِّرة، للسيطرة على عقل (طارق)، وقادوه للتخلص من رجلنا.

توقف عند هذه اللحظة، وعاد يتراجع فى مقعده الهوائى، وهو يضيف:

- ولهذا تحتم علىَّ أن أنقذه.

هتف (جمال):

- إذن أنت المسئول عن اختفاء (طارق)، فى حجرة الإعدام.

هزَّ الدكتور (رأفت) رأسه نفياً، وقال:

- لم أكن أقصد (طارق).

اتسعت عينا (جمال) عن آخرهما، وهو يقول:

- هل تعنى...

لم يكمل سؤاله، ولكن الدكتور (رأفت) اومأ برأسه إيجاباً، وقال:

- نعم... عميلنا فى زمنكم، هو ذلك الذى حمل اسم (عادل)... (عادل إبراهيم).

وكانت مفاجأة جديدة...

وعنيفة...

مفاجأة ألجمت لسان (جمال)، وأعجزته لحظات عن الكلام، فتابع الدكتور (رأفت):

- عندما قررنا إنقاذ زمنكم، كان يتحتم علينا أن نوجد هوية، للشخص الذى سيعيش بينكم؛ لذا فقد بحثنا فى كل سجلات عصركم، واخترنا طفلاً، لقى مصرعه فى قرية بعيدة، لم تصل إليها يد الحضارة بالقدر الكافى، فى أعماق الصعيد، الذى كنتم تهملونه فى تلك الفترة، ثم، وبوسائل بسيطة فى زمننا، أعددنا للشخصية كل الأوراق اللازمة، من وثائق وشهادات رسمية، مع عدد من الشهادات الجامعية، المنسوبة إلى دول أخرى، باعتبار أن ذلك كان يبهركم فى زمنك، وهكذا، ظهر (عادل إبراهيم حماد) فى زمنك، وبلمسة من تكنولوجيتنا، أضاف بياناته إلى سجلات الأحوال الشخصية، والكمبيوتر المركزى، وصار رسمياً أحد أفراد زمنك.

تمتم (جمال):

- ولهذا بدا للجميع عبقرياً، فى مجال تكنولوجيا المعلومات، ونظم الامن الرقمية.

هزّ الدكتور (رأفت) كتفيه، وقال:

- هذا أمر طبيعى، فلو عدت أنت، بمعلوماتك العامة، مائة سنة إلى الوراء، ألا تظن انهم سيعتبرونك عبقرياً؟!..

زفر (جمال)، قائلاً:

- بالتأكيد.

أشار الدكتور (رأفت) بيده مرة أخرى، وقال:

- فما بالك بعبقرى فى زمننا، عاد مائة سنة إلى الوراء؟!...

حاول (جمال) ان يبتسم، وهو يقول:

- سيعتبرونه فلتة من فلتات الزمن.

أضاف الدكتور (رأفت) فى سرعة:

- وهذا ما حدث بالفعل.

صمت (جمال) مفكراً، قبل ان يقول فى توتر:

- ولهذا أصبحت شركته مسئولة عن كل نظم المعلومات تقريباً.

ابتسم الدكتور (رأفت)، وقال:

- لا تقفز بفكرك إلى نظرية التجسّس؛ فبتكنولوجيتنا، لم يكن من العسير عليه، وهو يجلس فى منزله، ان يحصل على أدق أسراركم.

بدا الجواب منطقياً، بالنسبة للمفتش (جمال)، عندما أداره فى رأسه، فطرح فكرة المؤامرة عن ذهنه، وقال فى اهتمام:

- مازلت أشعر بالحيرة لما حدث، فلو أنك لست من أخرج (طارق)، من حبل المشنقة، فمن فعلها.

صمت الدكتور(رأفت) لحظات، ثم قال فى بطء:

- لم أقل أننى لم أفعلها.

تراجع (جمال) فى دهشة مستنكرة، وهو يهتف:

- ولكنك قلت...

قاطعه الدكتور (رأفت)، قبل أن يكمل:

- كنا نتحدث عن واقعة بعينها، عندما ذكرت هذا.

صمت (جمال) لحظات؛ ليفهم الامر مرة ثانية، ثم لم يلبث أن زفر، وهو يقول:

- أظننى بحاجة إلى مزيد من الشرح.

غمغم الدكتور (رأفت):

- هذا حقك.

ثم اتخذ مجلساً يبوحى بالاهتمام، وهو يتابع:

- أولئك القراصنة يستخدمون تكنولوجيا مختلفة، للسفر عبر الزمان والمكان، وهى أكثر تطوُراً من تكنولوجيتنا بالتأكيد، فالله سبحانه وتعالى، وحده يعلم منذ متى يستخدمونها... ربما من قرون، او من ملايين السنين... المهم أن المعركة بيننا كانت عنيفة، وربما هذا ما تسبب فى الفوضى الزمنية، التى شعرت بها فى زمنك، ويمكنك أن تدرك متى كنا نحن من يخترق الزمن، ومتى كانوا هم، من تكنولوجيا الانتقال نفسها.

عقد (جمال) حاجبيه، وهو يقول:

- هل تنتظر من أن أفعل؟!

ابتسم الدكتور (رأفت)، وقال:

- إنه أمر لا يتعلّق بالنظريات العلمية المعقدة، بل بالمشاهدة العادية، فانتقالنا يصنع فجوة زمنية فحسب، يمكننا من خلالها إيقاف الزمن لحظات، نقوم خلالها بما نريد، اما تكنولوجيتهم، وبسبب عدم توافقهم مع قوانين الطبيعة فى عالمنا، فتطلق ضوءاً شديد السطوع، أشبه بشمس تشرق بغتة، حيث يلتقون بزمننا العادى.

اتسعت عينا (جمال)، وهو يهتف:

- إذن، فالأحداث لم تكن مرتّبة كما تصوّرت.

أجابه الدكتور (رأفت):

- لو وضعت هذه الحقيقة البسيطة نصب عينيك، سيمكنك

ترتيبها على نحو منطقى... لقد سيطروا فى البداية على عقل (طارق)، وزرعوا فى مخه وحدة شديدة الدقة، بحيث تعجز تكنولوجيتكم، بأقصى تطوُرها على رصدها، بكل الوسائل المتاحة لديكم، وبعدها دفعوه لقتل (عادل)، فاضطررت انا للتدُخل فى زمنك، وانقاذ (عادل)، ولهذا اختفى من حجرة مكتبه، دون ضوء شديد السطوع، ودون أدنى أثر، مما جعلكم تتهمون (طارق) بقتله، مع عجز عقولكم المحدودة، ومعارفكم القليلة، عن إيجاد تفسير آخر، ولكن حدث خلل فى عملية انتقال (عادل9 عبر الزمن، مما جعله يسقط فى قبضتهم، ولم أجد سبيلاً لتخليصه منهم، سوى الحصول على (طارق)، الذى يحوى مخه وحدة السيطرة، التى خشوا أن أكشف أمرها بتكنولوجية عصرى، فأطلقوا سراح (عادل)، مقابل إطلاق سراح (طارق).

سأله (جمال) فى دهشة:

- اتعنى ان كلاهما قد عاد إلى زمنى؟!...

أومأ برأسه إيجاباً، وهو يقول:

- نعم... بعد لقائنا هناك بأيام قليلة.

عاد الشك يرسم ملامحه على وجه (جمال)، وهو يقول:

- كيف علمت بهذا إذن؟!...

ابتسم الدكتور (رأفت)، ابتسامة بدت مشفقة، وهو يقول:

- مشكلتك أيها المفتش، أنك، وبعد كل ما سمعته، مازلت تقيم للترتيب الزمنى وزناً، فى صراع فريقين، يمكن لكل منهما ان يسافر إلى اى زمن يشاء.

لم يكن الجواب سهل الاستيعاب، ولكن (جمال) تمتم:

- وماذا عن زيارتك لى؟!

هزَّ الدكتور (رأفت) رأسه، وقال:

- مع كل ما قرأته عنك، راودتنى فكرة شرح الامر لك فى زمنك، وعندما كنا معاً، حاولوا هم السيطرة عليك؛ لمنعك من معرفة الحقائق، فلم يكن أمامى، والحال هكذا، سوى ان اعود بك بضع ساعات فى الزمن؛ لأفسد خطتهم.

هتف (جمال):

- آه... الآن فهمت لماذا حدثت لى تلك الفجوة الزمنية.

مال الدكتور (رأفت) نحوه، وهو يقول فى حزم:

- المشكلة الآن، أنهم قد خالفوا الاتفاق، واستعادوا (عادل) مرة أخرى، وهو الىن فى قبضتهم، وسيحاولون انتزاع كل أسرارنا منه، بكل وسائلهم البشعة.

وصمت لحظة، ثم أضاف فى حذر:

- ولقد اختطفوا مساعدك (سامى) ايضاً.

انتفض (جمال) على مقعده الهوائى، وهو يقول فى عصبية:

- و (سامى) أيضاً.

زفر الدكتور (رأفت)، وقال:

- لا شك لدى فى أنهم سيحاولون أن ينتزعوا منه كل المعلومات الخاصة بك، مادامو قد عجزوا عن الحصول عليك، بعد ان سافرت أنا إلى زمنك مرة ثانية، واحضرتك من داخل سيارتك إلى هنا.

صمت (جمال) لحظات طوال هذه المرة، محاولاً استيعاب كل تلك التعقيدات الومنية العجيبة، خاصة وان دراسته لم تكن علمية، إلى الحد

الذى يكفل له فهم كل الامور، إلا أن طبيعته كرجل مباحث، جعلته يقطع صمته بسؤال حازم:

- وكيف يمكن منع كل هذا؟!

صمت الدكتور (رأفت) بعض الوقت، وهو يتطلّع إلى عينيه مباشرة، ثم قال:

- السبيل الوحيد الذى توصلّت إليه، هو العودة إلى ما قبل سيطرتهم على عقل (طارق)، ومنع كل هذا التسلسل الزمنى من الحدوث.

سأله (جمال) فى حيرة:

- ولماذا لم تفعل هذا؟!

بدت المرارة على وجه الدكتور (رأفت)، وهو يقول:

- لم يعد بإمكانى هذا.

سأله (جمال) فى قلق:

- لماذا؟!... هل أصاب آلتكم الزمنية تلف ما؟!

هزَّ رأسه نفياً، وقال:

- كُلا... إنها سليمة... التلف أصاب خلاياى أنا، من السفر المتكرر عبر الزمن، ولم يعد باستطاعتها احتمال المزيد، والفحص الذى اجريته أثبت انها ستنهار تماماً، إذا ما قدت عملية سفر زمنية واحدة.

ثم مطّ شفتيه، وأشار بيده، مستطرداً:

- لقد رأيت بنفسك أى إنهاك يصيب المسافر عبر الزمن، بتكنولوجيتنا، التى لم تتطوّر إلى الحد الكافى بعد... الامر يحتاج إلى

من هو أكثر شباباً منى.

سأله (جمال) فى تردُّد:

- وماذا عن (هيثم)؟!

تطلَّع الدكتور (رأفت) إلى عينيه مباشرة، وهو يقول:

- عجباً!!... ألم تستنتج الامر بعد؟!

ثم مال نحوه بشدة، وهو يضيف:

- ذلك الذى عرفتموه فى زمنك باسم (عادل إبراهيم حماد)، هو تلميذى العبقرى...(هيثم).

وبالفعل كانت مفاجأة جديدة...

قوية.

• • •

الفصل الخامس عشر

اقتحم النقيب (أنور) حجرة العناية الفائقة، التى يرقد فيها (طارق) الفاقد الوعى، وصوَّب مسدسه مباشرة إلى رأس هذا الأخير،و...

ودوت الرصاصات...

دوت من ركن آخر تماماً من الحجرة، حيث يجلس (على)...

لقد بقى فى حجرة (طارق)، دون أن يغادرها، منذ رقد هذا الأخير على فراشه، وما أن سمع تلك الجلبة فى الخارج، حتى تحفَّز بمسدسه...

واقتحم (أنور) الحجرة...

وأطلق (على) رصاصاته على الفور...

وعلى الرغم من أنه كان يستطيع إطلاق النار فى مقتل، إلا أن خبرته فى مجال البحث الجنائى، علمته ألا يقتل خصمه مباشرة، حتى لا يفقد مع مقتله، كل ما يمكن استخلاصه منه من معلومات...

لذا، فقد أطلق رصاصاته على ساقيه...

وسقط (أنور) على ركبتيه، وهو يطلق صرخة ألم كبيرة، وساد الهرج والمرج فى الخارج، وتعالى وقع أقدام تعدو فى كل مكان...

ونهض (على)، وهو مازال يصوب مسدسه إلى (أنور)، قائلاً بكل دهشته:

- أنت؟!

تعرَّف فيه على الفور ذلك النقيب، الذى صاحبه عند فحص سيارة المفتش (جمال)، وادهشه بشدة أن يقدم على فعل كهذا، فاندفع نحوه، هاتفاً فى حدة:

- ماذا تفعل؟!

ولكن (أنور) تجاهله تماماً، وكأنه لا يراه، ورفع رأسه وذراعه؛ ليصوّب مسدسه مرة ثانية نحو (طارق)...

وأطلق (على) رصاصة ثانية...

رصاصة اخترقت كف (أنور)، وأسقطت منه مسدسه...

وعلى الرغم من ساقيه المصابتين، وكفه التى تدمى على نحو مخيف، مال (انور) محاولاً التقاط مسدسه باليد اليسرى، وكأنما لم يعد له من هدف فى الحياة، سوى قتل (طارق) الفاقد الوعى...

وبكل سرعته، ركل (على) المسدس بعيداً، ثم لكم (أنور) فى فكه بكل قوته، صارخاً:

- ماذا أصابك؟!

احتمل (أنور) اللكمة على نحو عجيب، وحاول أن يزحف مرة أخرى نحو المسدس البعيد، فاستجمع (على) كل قوته، وهوى على مؤخرة عنقه بمسدسه..

وفى هذه المرة، انتفض جسد (أنور) فى شدة، ثم سقط فاقد الوعى...

وبكل دهشته وحيرته، وقف (على) يلهث، وهو يغمغم:

- لماذا فعل هذا؟!... لماذا؟!..

وصل رجال أمن المستشفى فى هذه اللحظة، وهالهم ذلك الموقف العجيب، الذى لم يواجهوا مثله قط فى حياتهم، ولكن (على) استعاد سيطرته على نفسه، وهو يقول، مشيراً إلى (أنور):

- هذا الرجل يحتاج إلى إسعاف سريع، ولكن احرصوا على تقييده فى إحكام؛ فقد أصابه مساً من الجنون.

" جنون؟!... "...

هتف بها مدير الأمن مستنكراً، وهو يقف فى حجرة العناية الفائقة، بعد ساعة واحدة، وأضاف فى غضب:

- لقد حاول قتل متهم هارب، تمت استعادته على نحو عجيب، وهذا لا يمكن تصنيفه بالجنون، بقدر ما هو خيانة عظمى لوظيفته وواجبه.

قال (على)، وهو يفرد قامته:

- لم يكن فى حالة طبيعية إطلاقاً، عندما فعل هذا... لقد أعجزته عن الحركة تقريباً، ولكنه ظل مصراً على استعادة مسدسه، وتنفيذ مهمته.

صمت لحظة، ثم أضاف فى توتر:

- ثم أن أحد الاطباء هنا، أكّد أنه مصاب بمشكلة نفسية، سببت له إزعاجاً كبيراً، فى الآونة الاخيرة.

سأله مدير الأمن فى حدة:

- أأنت مستعد لأن تورد هذا، فى تقريرك الرسمى؟!

أجابه (على) فى حزم:

- بالتأكيد.

رمقه مدير الأمن بنظرة غاضبة، قبل أن يقول فى حدة:

- وماذا عن كل من حضر الواقعة فى المستشفى؟!...هل تظن أنهم سيلزمون الصمت جميعاً؟!..

قال (على) فى شئ من الصرامة، لا يتناسب مع رتبته:

- فليقولوا ما يشاءون... هذا ما حدث بالفعل.

هتف مدير الامن:

- وماذا عن المسئولين؟!... ورجال الصحافة والإعلام؟!... هل تظن أن حادثة إطلاق النار، داخل مستشفى الشرطة، ستمضى معهم فى سلام؟!..

هزَّ (على) رأسه نفياً، وقال:

- كُلا بالتأكيد، ولكننا سنصدر تصريحاً رسمياً، نشرح فيه الموقف كله.

واصل مدير الامن حدته، وهو يقول:

- وهل تتصوَّر أنهم سيصدقونه؟!... أنهم سيشككّون فى كل حرف منه، وسيوردون القصص، والتفسيرات، وكل ما يحلو لهم من إعادة توصيف الامور كامعتاد.

قال (على) فى حزم:

- ليس أمامنا سوى هذا.

صمت مدير الأمن لحظات، محدِّقاً فى وجهه، ثم قال فى حدة:

- هذه القضية صارت مصدر أرقى وتوترى... إننى لم أغمض عينىَّ، أو أشعر بالارتياح، منذ بدأت.

غمغم (على) فى ضيق:

- كلنا هذا الرجل.

صمت مدير الامن لحظات فى حنق، ثم لم يلبث أن قال فى حدة:

- إنها قضيتك على كل حال.

ثم اندفع يغادر المكان، وكأنما يلقى الامر كله على كاهل (على)، الذى شعر بالارتياح لهذا، على الرغم من كل ما حدث...

وفى خطوات سريعة، اتجه نحو باب الحجرة، وأغلقه، ثم التفت إلى (طارق) الفاقد الوعى، وغمغم فى توتر:

- أى سر تحمله فى أعماقك يا هذا؟!... أى سر؟!..

" لا توجد أية أسرار..."..

نطق الدكتور (رأفت) العبارة، فى زمن آخر، وهو يواجه المفتش (جمال)، الذى عاد يسأله فى حزم:

- لماذا لا تحدثنى فى صراحة إذن؟!

صمت الدكتور (رأفت) لحظات، ثم قال فى أسف:

- تصوَّرت أنك قادر على استيعاب الأمر، على نحو أكثر سرعة.

شعر (جمال) بالضيق، من المعنى الذى تحويه عبارة الرجل، فقال فى توتر:

- هل تحاول إقناعى، بالقيام بتلك الرحلة الزمنية؟!

بدا الارتياح على وجه الدكتور (رأفت)، وهو يقول:

- بالضبط.

سرى توتر شديد، فى جسد (جمال)، وهو يتصوَّر نفسه مسافراً عبر الزمن، فى احد أفلام الخيال العلمى، يواجه مخلوقات عجيبة، تملك القدرة على السيطرة على عقول الىخرين، وهزَّ رأسه فى قوة، وهو يقول:

- مطلبك يتجاوز حدود إمكانياتى؛ فحتى لو نجحت فى هذا، فكيف سأواجه تلك المخلوقات؟!

أجابه الدكتور (رأفت) فى سرعة:

- ليس المطلوب منك ان تواجهها... فقط ستصل إلى (هيثم)، قبيل حادثة (طارق) مباشرة، وستحمل إليه رسالة منى، أشرح له فيها الموقف كله، وسيتولى هو البقية.

قال (جمال) فى توتر:

- ولكن الواقع أننى سأكون موجوداً، فى الزمن نفسه، فماذا لو التقيت بذاتى مثلاً؟!

أجابه الدكتور (رأفت) فى هدوء، وكأنه يناقش أمراً عادياً:

- سيفى كلاكما الىخر؛ لأن المادة الواحدة، لا يمكنها أن تحتل نفس المساحة من الفراغ، فى وقت واحد، كما تؤكد نظريات السفر عبر الزمن.

حدّق فيه (جمال) مستنكراً، ولكن الرجل تابع بنفس الهدوء:

- لهذا لا يمكنك البقاء فى ذلك الزمن، لأكثر من أربع وعشرين ساعة فقط.

سأله (جمال) فى اهتمام قلق:

- وبعدها أعود إلى هنا؟!

صمت الدكتور (رأفت)، وهو يتطلّع إليه، فغمغم (جمال) فى قلق أكثر:

- أم ماذا؟!

تنهّد الدكتور (رأفت)، وهو يجيب:

- بعدها سيفنى جسدك.

كادت عينا (جمال) تجحظان، وهو يحدّق فى ذهول، قبل أن يقول فى حدة:

- إذن أنت تطلب منى ان أموت؟!

هزّ الرجل رأسه نفياً، وأجاب:

- ليس كما تتصوّر.

قال (جمال) فى عصبية:

- اهناك تصوّر آخر للموت؟!

أجابه فى سرعة:

- بالتأكيد، مادام الامر يتعلّق باللعبة الزمنية.

ثم اعتدل، واستخدم يديه فى حماس، وهو يضيف:

- ما سيفنى هو كيانك الحالى؛ لأنه ليس فى زمنه الفعلى، ولكن كيانك الىخر، الذى يسير فى تسلسله الزمنى الصحيح سيبقى، وسيواصل حياته، دون أن يدرى حتى ماذا حدث، ولو وجد (هيثم) طريقة للخلاص، ستتغيّر الاحداث كلها، عند تلك النقطة، وبهذا لن يتم اتهام (طارق) بقتله، ولن يختفى بالتالى من حجرة الإعدام، ولن تحدث تلك السلسلة من التداعيات، التى أتت بك إلى هنا

هتف (جمال) فى حدة:

- وماذا عن تأثير الفراشة، الذى أرهقت عقلى بالحديث عنه؟!

هزّ الدكتور (رأفت) كتفيه، وقال:

- لا أحد يدرى... هناك آلاف السيناريوهات، التى يمكن وضعها تحت هذا الافتراض... ربما يتغيّر شكل العالم عما نعرفه، وربما تختلف بعض أحداث التاريخ..

ثم ابتسم ابتسامة مريرة، مضيفاً:

- وربما حتى لا نتوصل نحن عندئذ، إلى اختراع آلة الزمن البشرية.

حاول (جمال) لحظات، استيعاب هذا، ثم لم يلبث أن هزَّ رأسه فى شدة، وهو يقول:

- ولكن لو أنكم لم تخترعوها، فلن تعلموا بوجود قراصنة الزمن هؤلاء، ولن يضطر (هيثم) للعودة إلى زمنى، و...

لم يستطع الاستطراد، مع تعقيدات الموقف اللانهائية، فاحتقن وجهه بشدة، مما جعل (رأفت) يميل نحوه، قائلاً:

- فى النهاية، ليس أمامنا سوى هذا الحل.

ارتسم مزيج من الشك والقلق، على وجه (جمال)، فعاد الدكتور (رأفت) يميل نحوه، وهو يقول فى حزم:

- قل لى... ما الذى أنت مستعد لعمله، فى سبيل (مصر)؟!

أجابه (جمال) فى سرعة مخلصة:

- أى شئ فى الوجود.

سأله الرجل، فى حزم اكبر:

- حتى التضحية بحياتك؟!

أجابه (جمال) دون ذرة واحدة من التردُّد:

- بالتأكيد.

مال نحوه الرجل أكثر، وقال:

- ما الذى أنت مستعد لعمله إذن، فى سبيل الأرض كلها؟!

حدَّق (جمال) فى وجهه لحظات، متسع العينين، ثم تراجع فى مقعده فى بطء، وهو يقول فى صوت خافت مستسلم:

- متى يمكننا البدء؟!

تراجع الرجل فى مقعده فى ارتياح، وهو يجيب:

- فوراً.

وارتجفت كل ذرة فى كيان (جمال)، كما لم يحدث من قبل... أبداً.

• • •

الفصل السادس عشر

كل شئ بدا أشبه بفيلم من أفلام الخيال العلمى...

كل شئ...

تلك الأرقام المجسمة، التى تسبح فى هواء المكان، كما لو أنه قد تحوّل كله إلى شاشة رقمية ثلاثية الأبعاد...

وذلك الجهاز الأسطوانى الشفاف، الذى يرقد داخله...

والآلات الدقيقة المتعددة، التى تدور من حوله، كما لو أنها قد قطعت علاقتها نهائياً بالجاذبية الأرضية وقوانينها...

وفى رقدته، راح (جمال) يدور عينيه فى كل هذا، فى توتر لم يشعر به من قبل، وهو يتساءل:

هل سيكون فناء جسده مؤلماً، فى حين ناوله الدكتور (رأفت) مكعباً صغيراً من الكريستال، وهو يقول:

- هذه التقنية غير موجودة فى زمنكم، ولكن (هيثم) يملك التعامل معها، وهى تحوى رسالة منى، بها كل التفاصيل المطلوبة، وكل الاحداث التى تلى الزمن الذى ستصل إليه، وهى ستجعل (هيثم) يثق بك، ويثق فى أننى قد ارسلتك إليه، وهذه قنينة تحوى عقار التنشيط، احتفظ بها جيداً، حتى تتناولها، فور استعادتك شيئاً من وعيك، وكل ما تبقى هو أن تتوصلا إلى اللحظة، التى حدث فيها اللقاء الأوّل، بين (طارق بشير)، وتلك الكائنات الزمنية.

العبارة الأخيرة جعلت (جمال) يعتصر ذهنه فى قوة، محاولاً استرجاع كل ما قرأه فى ملف قضية (طارق)، ولكن الدكتور (رأفت) قطع تواصل أفكاره، وهو يقول:

- أأنت مستعد؟!

سرت قشعريرة فى جسد (جمال)، وهو يقول فى توتر:

- اعتقد هذا.

منحه الدكتور (رأفت) ابتسامة مشجعة اخيرة، ثم أولاه ظهره، ومسّ بأنامله بعض تلك الأحرف المجسمّة فى الهواء، فصدر صوت خافت من الأسطوانة الشفّافة، ثم بدأ الغطاء العلوى لها ينزلق فوقها، فتضاعف توتر (جمال)، و...

وفجأة، بدأ كل شئ...

شئ أشبه بصواعق صغيرة، انتشر حول الأسطوانة كلها، وبدا واضحاً عبر غطائها الشفّاف، ثم راح جسده هو يرتج فى قوة، جعلته يغلق عينيه فى ألم، وعلى الرغم من هذا، بدا له أنه يرى خليطاً من الالوان يتطاير أمامه، قبل أن تصدر تلك الفرقعة، التى شعر معها وكأنه يهوى فى فراغ لا نهائى...

وبحركة غريزية، حاول أن يتشبّث بأى شئ حوله، إلا أن جدران الأسطوانة بدا وكأنها قد تلاشت، وصار جسده منفرداً، فى ذلك الفراغ اللانهائى، الذى بدا وكأن سقوطه فيه لا ينتهى...

ثم فجأة، ارتطم جسده بالأرض...

وهدأ كل شئ...

كان يشعر بإرهاق شديد، يشمل كيانه كله، حتى أنه ظلّ مسترخياً أرضاً، يغلق عينيه فى قوة، على الرغم من أشعة الشمس، التى تغمر وجهه وجسده...

وفى صعوبة بالغة، التقط قنينة التنشيط من جيبه، وبذل كل

ما تبقى له من جهد؛ ليرفعها إلى شفتيه، ثم يجرع محتوياتها دفعة واحدة...

ثوان مضت، ثم بدأ النشاط يدب مرة أخرى فى أطرافه، واستعاد عقله شيئاً من صفائه، فمال بوجهه، متفادياً أشعة الشمس المباشرة، ونهض جالساً، ثم فتح عينيه فى بطء، يتطلّع إلى ما حوله...

نعم، إنه عالمه الذى يعرفه، وزمنه الذى اعتاده...

ياله من شعور مريح!...

ولكن وفقاً لحسابات الدكتور (رأفت)، المفترض أن يكون الـ(ن) فوق سطح مبنى شركة المستقبل لتكنولوجيا المعلومات، فى زمن يسبق الاحداث...

ووفقاً لما تراه عيناه، هو على سطح ما بالفعل...

نهض واقفاً، وبحث عن مخرج للسطح، ووجد باباً صغيراً، عبره إلى درجات سلم طويلة، قادته إلى الطابق العلوى من المكتب...

وفى ذهول، حدّق فيه حارس الأمن هناك، ووضع يده على مسدسه فى تحفّز، وهو يسأله فى انفعال:

- من أين أتيت يا هذا؟!

أبرز (جمال) هوية الشرطة التى يحملها، وتجاهل سؤال الحارس تماماً، وهو يقول فى صرامة:

- المفتش (جمال فتحى)، من المباحث الجنائية... أريد مقابلة السيّد (عادل إبراهيم) فوراً؛ لأمر هام وعاجل.

ظلّ الحارس يحدّق فى وجهه لحظات بنفس الذهول، ولكنه كتم سؤاله فى أعماقه، مع مطالعته الهوية، وغمغم فى توتر:

- مكتب (عادل) بك أسفلنا مباشرة، ولكن...

لم يمنحه (جمال) الفرصة لإكمال عبارته، فقد كان فى الواقع أشد توتراً منه، لا يستطيع بعد استيعاب رحلتة الزمنية العجيبة، التى لا يمكنه حتى ان يرويها لأحد.

أو ربما لن يجد أبداً الوقت لهذا...

عاوده مرة أخرى ذلك القلق المخيف، حول فناء جسده المتوقّع، بعد أربعة وعشرين ساعة، وتساءل عما يعنيه الدكتور (رأفت) بكلمة (فناء) هذه؟!.

هل سيموت مثلاً؟!..

أو يتلاشى؟!...

أم يضيع فى الفراغ؟!..

أرعبته الفكرة بعض الشئ، وهو يهبط إلى حيث مكتب (هيثم)، وحاول أن يبعدها عن ذهنه، فتساءل: كيف سيكون موقف مدير الامن، لو أراد أن يذكر هذا فى تقريره الرسمى؟!..

حاول أن يبتسم للفكرة، ولكن توتره منعه من هذا، حتى وصل إلى حيث مكتب (هيثم)، واتجه نحو السكرتيرة، التى حدّقت فيه بنفس النظرة، التى اطلّت من عينى حارس الطابق العلوى، فتوقف أمامها، وكرّر عليها نفس ما قاله للحارس، وهو يبرز هويته، التى حدّقت فيها السكرتيرة أيضاً، ثم رفعت عينيها إليه، متسائلة فى دهشة:

- كيف صعدت إلى هنا مباشرة، دون ان يبلغنا مكتب الامن فى المدخل؟!

تجاهل سؤالها، وهو يقول فى صرامة:

- قلت إنها مقابلة هامة وعاجلة، ولست مستعداً للانتظار، فلكل دقيقة ثمنها.

بدت صارمة أيضاً، وهى تقول:

- (عادل) بك لا يستقبل أحداً، دون موعد سابق.

مال يرتكن على سطح مكتبها بقبضتيه، وتطلّع إلى عينيها مباشرة، وهو يقول:

- ماذا لو عدت مع وكيل النيابة، والضبطية القضائية؟!

شحب وجهها على نحو كبير، وبح صوتها، وهى تغادر مكتبها قائلة:

- سأبلغه.

غابت داخل المكتب لنصف دقيقة، بدت للمفتش (جمال) أشبه بدهر كامل، وهو يبذل جهده للسيطرة على أعصابه، والحفاظ على مظهره الصارم، ثم لم تلبث أن خرجت، وامسكت بالباب المفتوح، قائلة فى توتر مستسلم:

- تفضل.

دلف(جمال) إلى المكتب، الذى أغلقت السكرتيرة بابه خلفه، وتطلّع لحظة إلى (هيثم)، الذى يبدو شاباً وسيماً، موفور الصحة، وهو يقف خلف مكتبه، ويمد يده إليه، قائلاً فى هدوء:

- بم يمكن أن أخدمك يا سيادة المفتش؟!

صافحه (جمال)، وجلس على المقعد المقابل لمكتبه، وهو يجيب:

- بالكثير.

تطلّع إليه (هيثم) بعينين هادئتين متفحصتين، قبل أن يميل نحوه، قائلاً:

- من المفترض هنا، عندما يتلقى شخصاً زيارة من مفتش مباحث، أن يصاب بشئ من التوتر، ولكننى عندما صافحتك، لاحظت أنك انت المصاب بالتوتر يا سيادة المفتش، فما سبب هذا؟!

أدهش السؤال (جمال) بحق، وغمغم فى أعماقه بأن الشاب عبقرى بالفعل، ولكنه سيطر على أعصابه، وقال:

- إننى موفد إليك، من شخص تعرفه.

تراجع الشاب فى مقعده فى هدوء، مكرراً:

- شخص أعرفه؟!

دفع (جمال) أكبر قدر من الحزم إلى صوته، وهو يقول:

- الدكتور (رأفت)... (رأفت فهمى)

كان يتوقع ان يظهر أثر المفاجأة أو الصدمة، على وجه الشاب، إلا أنه ظل هادئاً على نحو عجيب، وهو يقول، وقد تسللت ابتسامة إلى ركن شفتيه:

- (رأفت فهمى)؟!... هل التقيت به فى مؤتمر ما، أن أنه أحد أصحاب الشركات، التى أتعامل معها؟!

التقط (جمال) نفساً عميقاً، أخرجه مع كلماته، وهو يقول:

- بل هو أستاذك الشخصى يا... يا سيِّد (هيثم).

مرة أخرى، لم يبد أى تأثير على ملامح الشاب، حتى أن (جمال) بدأ يشعر بالقلق، من أنه قد اخطأ الشخص المطلوب، قبل أن يميل الشاب إلى الامام، قائلاً بنفس الهدوء:

- يبدو أنك قد اخطأت هدفك يا سيادة المفتش... اسمى (عادل إبراهيم).... الدكتور (عادل إبراهيم)، وليس (هيثم).

لم يدر (جمال) كيف يمكن للشاب السيطرة على انفعالاته، على هذا النحو المدهش، ولم يجد امامه ما يفعله، سوى أن أخرج مكعب الكريستال الصغير من جيبه، ووضعه أمامه على سطح المكتب، دون أن يضيف حرفاً واحداً...

ولثوان، ظلّ الشاب يتطلّع إلى المكعب بنظرة خاوية، قبل أن يعتدل فى مجلسه، ويمد سبّابته إليه، و...

ويلمس سطحه...

وعندئذ، انتفض جسد (جمال) فى شدة...

فما ان لمس (هيثم) المكعب بطرف سبّابته، حتى تألق كله بضوء أزرق جميل، ثم انبعث من سطحه نافورة من الضوء، سبحت معها تلك الأحرف والأرقام ثلاثية الأبعاد، فى جو الحجرة، فى حين أغلق (هيثم) عينيه فى شدة، وراح جسده يرتجف على نحو ملحوظ، وسبّابته تبدو وكأنها قد التصقت بالمكعب، وتلك الأحرف والأرقام تتخذ مساراً أشبه بدوّامة، تدور حول رأس الشاب، الذى يرتجف...

يرتجف...

ويرتجف...

وارتجافته تزداد قوة وسرعة فى كل ثانية، حتى أطلق شهقة مفاجئة، انتفض لها جسد (جمال) مرة أخرى، واتسعت معها عيناه، وخبا بعدها ضوء المكعب، الذى سحب (هيثم) سبّابته منه فى حركة حادة، ثم تراجع فى مقعده، وهو يلهث فى شدة، كمن بذل جهداً جباراً...

واختفت كل الأحرف والأرقام الأبعاد، من جو الحجرة دفعة واحدة، ولكن (جمال) ظل جامداً فى مقعده، يحدق فى (هيثم)، ويتساءل عما أصابه...

ولوهلة، راوده الشك فى كل ما حدث...

أكانت هذه بالفعل وسيلة اتصال، ورسالة تنبيه، ام انه، دون ان يدرى، حمل عبر الزمن، سلاح تدمير الشاب؟!...

لم تستغرق تساؤلاته لحظات، فتح بعدها (هيثم) عينيه، مغمغماً فى إرهاق:

- معذرة.

سأله (جمال) فى خفوت:

- أأنت بخير؟!..

أومأ الشاب برأسه إيجاباً، وقال وهو يبذل جهداً لإستعادة حيويته:

- نعم... اطمئن... كان من الضرورى أن نتأكّد من أنهم لن يحصلوا على أى شئ منى، لو أنهم نجحوا فى الوصول إلىّ، لذا فقد محونا مؤقتاً شخصية (هيثم)، واحتفظنا بها هنا.

قالها، وهو يشير إلى المكعب الكريستال، فهتف (جمال) مندهشاً:

- هنا؟!

ابتسم (هيثم)، وهو يعتدل على مقعده، قائلاً:

- لا تحاول الفهم أيها المفتش، فهذا يتجاوز إدراكك بكثير.

قال (جمال) فى ضيق:

- كل ما مررت به، فى الأونة الاخيرة، يتجاوز إدراكى بكثير، وعلى الرغم من هذا، فقد امكننى استعاب الكثير منه.

عاد (هيثم) يبتسم، مغمغماً:

- بالتأكيد.

لم ترق تلك الابتسامة الثانية للمفتش (جمال)، فسأله فى عصبية:

- والآن، هل تعتقد أن ما قمت به سيذهب سدى.

أجابه فى حزم:

- مطلقاً.

ثم استطرد فى اهتمام:

- لقد درست الامر من كل اوجهه، ووجدت أن مشكلتنا الوحيدة، هى أننا نجهل متى وأين سيتجسّد هؤلاء القراصنة الزمنيون، فلو أمكننا تحديد وموعد بعينه، أمكننا القضاء عليهم نهائياً، فى المكان والزمان، بحيث ينجو الكون كله من شرورهم.

قال (جمال) فى حماس:

- لقد تجسّدوا بشمسهم الساطعة فى مكتبى...

ثم استدرك فى ارتباك:

- أعنى أنهم سيفعلون مع شبيهى... أو مع نفسى الأخرى... لست أدرى فى الواقع كيف أصف هذا!...

صمت (هيثم) لحظة، ثم قال:

- وفقاً للمعلومات، التى أمدّنى بها هذا المكعب، سنكون قد خسرنا الكثير، إذا ما استخدمنا هذه النقطة الزمنية؛ إذ سيكونون عندئذ قد سيطروا على عقل (طارق) بالفعل، وتم أتهامه ظلماً بقتلى، وسنضطر لإنقاذه من حبل المشنقة مرة أخرى، وهذا سيزيد الامور تعقيداً.

وهزّ رأسه، مضيفاً فى أسف:

- فالرجل لا يستحق هذا المصير فى الواقع.

تراجع (جمال) فى مقعده يائساً، وهو يغمغم:

- كيف يمكن أن نظفر بهم إذن؟!

تنهّد (هيثم) قائلاً:

- لدينا الوسيلة، ولكننا نفتقر إلى التوقيت.

أغلق (جمال) عينيه، وحاول أن يسترخى على مقعده، وهو يسترجع الامر كله؛ بحثاً عن الحل..

لقد واجه من قبل عشرات الجرائم، التى قيل عنها انها غامضة معقّدة، واكتسب شهرته فى عالم البحث الجنائى، من كشف غموضها وحل تعقيداتها...

ولكنه لم يواجه أبداً شيئاً كهذا!!...

لم يواجه موقفاً، يبدو أشبه بأفلام الخيال العلمى، مع لمسة من الرعب، وغموض مستقبلى، وتعقيدات علمية لا حصر لها...

ولكن، لماذا لا يحاول؟!...

اعتصر ذهنه أكثر، مسترجعاً كل موقف...

وكل ورقة...

وكل كلمة...

وكل حرف...

استرجع أحداث الاختفاء الغامض...

وقضية (طارق بشير)...

و...

وفجأة، توقف ذهنه عند نقطة بعينها...

عبارة، رددُها (طارق)، فى التحقيقات الأوّلية، ولم يلتفت إليه أحد...

عبارة، ربما يكون فيها حل الامر كله...

وفى انفعال، اعتدل فى مقعده، وفتح عينيه، هاتفاً:

- إننى أعرف اللحظة المناسبة.

والتفت إليه (هيثم)، بكل اهتمام الدنيا، ثم خفق قلبه فى قوة، وهو يستمع إليه...

فالحل فعلاً كان يكمن فى هذه النقطة...

بالتأكيد.

• • •

الفصل السابع عشر

الساعات تمضى بسرعة، أكبر مما تصوّر...

دارت هذه الفكرة فى رأس (جمال)، وهو يجلس فى قبو خفى، أسفل فيلا (هيثم) فى (المقطم)، يراقب هذا الاخير، الذى انهمك فى إعداد وتجهيز أسطوانة شفافة، تشبه تماماً تلك التى عادت به إلى ما قبل زمنه...

كانت عقارب ساعته تشير إلى أنه لم يتبق أمامه سوى ساعات ثلاث، قبل أن يفنى جسده تماماً...

ولقد استغرق إعداد تلك الأسطوانة وقتاً طويلاً، بالإمكانيات المتاحة فى زمنه...

كان (هيثم) يؤدى صلاته، فراقبه (جمال) حتى انتهى، ثم ساله فى قلق:

- أأنت واثق من انها ستعمل؟!

أومأ (هيثم) برأسه إيجاباً، وقال:

- نعم... ليس لدى شك فى هذا... لقد أعددت كل شئ، بحيث تنتقل إلى تمام منتصف الليل، وهو نفس التوقيت، الذى أكّد (طارق) أكثر من مرة، أن الشمس قد سطعت فيه امامه، وانه قد فقد بعدها ما يقرب من ساعة من عمره، دون ان يدرى كيف...

قال (جمال) فى أسف:

- روايته لم تكن منطقية حينذاك، وتصوُّر الكل أنه يردّدها للتظاهر بالجنون؛ حتى يفلت من العقاب.

ابتسم (هيثم) ابتسامة باهتة، وهو يغمغم:

- من حسن الحظ أنه ردّها.

راقبه (جمال) بضع لحظات أخرى، وهو يعدّ أجهزته، ثم سأله فى اهتمام:

- وكيف تتصوّر ما سيحدث؟!

أجابه (هيثم) دون أن يلتفت إليه:

- عندما تعمل آلتى، ستنقلنى إلى نفس لحظة تجسّد آلتهم، وسيحدث اختراقان زمنيان فى آن واحد، مما سيحدث خللاً زمنياً مكانياً عنيفاً.

سأله (جمال) فى قلق:

- وإلى ماذا سيؤدى هذا؟!

صمت (هيثم) لحظات، قبل أن يجيب فى حزم:

- سيفنى كلانا من الوجود.

اتسعت عينا (جمال)، وهو يقول:

- أنت وهم؟!

أومأ (هيثم) برأسه إيجاباً، وهو يغمغم:

- هذه هى الوسيلة الوحيدة؛ للقضاء عليهم نهائياً.

حدّق فيه (جمال) لحظات فى دهشة، ثم قال فى خفوت:

- ولكنك تنتمى فعلياً إلى المستقبل، مما يعنى أن الحاضر الحالى هو محطتك الاخيرة، فلو فنيت، فسيعنى هذا أنك ستفنى نهائياً.

شد (هيثم) قامته، وجذب ذراعاً صغيراً فى إحدى أجهزته، وهو يقول:

- ليس أكثر شرفاً من أن يفنى المرء فى سبيل عالمه.

غمغم:

- دون حتى ان يدرى ذلك العالم بتضحيتك من اجله؟!

هزّ (هيثم) رأسه، وهو يجيب فى حزم:

- ليس هذا هو المهم.

تطلّع إليه (جمال) فى انبهار شديد، ودارت العبارة ألف مرة فى رأسه...

ليس أكثر شرفاً، من أن يفنى المرء فى سبيل عالمه...

سأله فى بطء:

- وكيف ستطلق آلتك الزمنية؟!

أجابه (هيثم):

- لقد أعددت كل شئ... سيبقى فقد أن أضغط هذا الزر الاحمر، ثم ستكون لدى بعدها عشر ثوان، لأرقد داخل الآلة، فتنطلق إلى اللحظة المنشودة.

غمغم (جمال):

- بهذه البساطة...

أومأ (هيثم) برأسه إيجاباً، فسأله (جمال) مرة ثانية:

- ولكننا لا نعلم بالتحديد أين سيتجسّدون... ماذا لو تجسّدت أنت فى اللحظة نفسها، ولكن بعيداً عنهم.

هزّ رأسه، قائلاً:

- لن يصنع هذا فارقاً... المهم أن يتم التجسّد فى محيط عشرة كيلو مترات، وفى نفس اللحظة.

صمت (جمال) يراقبه بضع لحظات، وألقى نظرة أخرى على ساعته، وهو ينهض من مقعده، ويتجه نحوه، قائلاً:

- أليس من الخسارة أن يفقد المستقبل عبقرياً مثلك؟!

أجابه (هيثم) فى حزم، وهو يتجه نحو ذلك الزر الاحمر:

- المهم أن يبقى مستقبل عالمى، وينجب عباقرة آخرون.

وقف (جمال) خلفه مباشرة، وهو يقول:

- إننى أؤمن تماماً بما قلته يا فتى... ليس أكثر شرفاً، من أن يفنى الإنسان، فى سبيل عالمه.

ثم تحرّك فجأة، وهى على مؤخرة الشاب بلكمة كالقنبلة، اتسعت معها عينا (هيثم)، فى ألم وذهول، وحاول أن يتماسك، وهو يلتفت إليه فى صعوبة، فأضاف (جمال) بكل الحزم:

- فما بالك بمن سيفنى، فى كل الأحوال.

ثم كال له لكمة ثانية فى فكه، سقط إثرها الشاب فاقد الوعى، بين أجهزته شديدة التعقيد...

وهنا، اعتدل (جمال)، والتقط نفساً عميقاً، وهو يغمغم:

- أتعشم أن تواصل نفسى الاخرى نجاحاتها، حتى تستحق ذلك التاريخ المشرّف فى المستقبل.

التقط نفساً آخر عميقاً، ثم ضغط ذلك الزر الأحمر، واندفع يرقد داخل تلك الأسطوانة الشفافة، التى انزلق غلافها العلوى فوقها، وراحت تلك الشرارات الصغيرة تغمره...

وداخلها أغلق (جمال) عينيه فى قوة...

لقد تخيّل نهايات عديدة لحياته، منذ بدء عمله، فى مجال البحث الجنائى...

تخيّل رصاصة انتقام...

أو حادث مدبّر...

أو حتى ميتة طبيعية...

ولكنه لم يتخيّل مثل هذه النهاية...

أبداً...

شعر فجأة بجسده يسقط، فى ذلك الفراغ اللانهائى، فأغلق عينيه تانية، إلا أنه لم يلبث أن شعر بفضول شديد، لمعرفة كيف ستكون النهاية!!...

وكيف ستبدو!!...

ومع فضوله، فتح عينيه...

وكان المشهد عجيباً...

كان وكأنه يسقط فى دوّامة عجيبة، عبر ممر طويل، أشبه بقلب دودة عملاقة، تتألق جدرانها الداخلية بكل لون رآه فى حياته...

وكانت الرحلة تبدو بلا نهاية...

ثم بدات تلك الأشكال العجيبة فى الظهور...

أجسام شبه بشرية، شبه شفافة، ذات رءوس كبيرة، وعيون شديدة الاتساع، تحُدق كلها فيه بنظرة عجيبة...

نظرة تجمع ما بين الدهشة والذعر وفزع المفاجأة، لو أننا قسنا هذا بمقاييس عالمنا الذى نعرفه...

وكانت كل تلك المخلوقات، داخل ما بدا أشبه بفقاعة شفافة هائلة، تحوى داخلها غابة من الكريستال النقى...

والعجيب أن هذا المشهد لم يفزعه...

لقد رأى فزعهم الشديد، وتحركاتهم المضطربة، فغمغم:

- إنها النهاية أيها الأوغاد.

ومع ختام عبارته، بدا له انه يسمع صراخهم الرهيب، ثم غمره ضوء شديد السطوع، وشعر بكيانه كله يتفكّك...

ثم انتهى كل شئ...

تماماً.

• • •

الفصل الأخير

انحنى الرائد (سامى)، يعيد فحص تلك الجثة مقطوعة الأوصال، قبل أن يغمغم فى أسف:

- الجرائم تزداد بشاعة فى كل يوم.

أجابه المفتش(جمال)، وهو يدير رأسه فى مسرح الجريمة، محاولاً أن يستشف منه ملابسات الواقعة:

- من الواضح أنها جريمة انتقامية، وأن الجانى هو أحد معارف القتيل، وأتصوّر أنها ترتبط بلمحة نسالية؛ فلو لاحظت، فستجد ثلاثة أكواب هنا، بها بقايا عصير فواكه، أحدها يحمل آثار طلاء شفاة على طرفه، وباب المنزل سليم، يوحى بعدم الاقتحام.

اعتدل (سامى)، وهو يقول فى إعجاب:

- رؤيتك لمسرح الجريمة تبهرنى دوماً يا سيادة المفتش.

تجاهل (جمال) عبارته، وهو يتابع:

- وآثار الدماء تشير إلى أن الجريمة قد تمت فى مكان آخر، هو حجرة النوم على الأرجح،

والقتيل مازال يحمل حافظته المتخمة بالنقود، ولا يوجد أثاث محطّم حولنا...ماذا تستنتج من هذا؟!

أجابه (سامى) فى سرعة:

- أن القتل قد تم فجأة، بتخطيط مسبق، والقتيل لم يقاوم؛ لأنه لم يتوقع ما حدث.

هزّ (جمال) رأسه فى هدوء، وقال:

- هل لاحظت أن الهاتف المحمول للقتيل قد اختفى، على الرغم من أن حافظته ظلت موجودة.

تساءل (سامى) فى تردُّد:

- وما الذى يمكن أن يعنيه هذا؟!

أشار (جمال) بيده، وهو يجيب فى بساطة:

- الهاتف كان يحوى اتصالات أو رسائل، لم يجد القاتل فرصة لمحوها، وخشى أن تشير إليه، فاستولى على الهاتف كله.

رفع (سامى) حاجبيه لحظة، ثم خفضهما، وهو يبتسم، قائلاً:

- هل نقوم بتتبع الهاتف المحمول؟!

أجابه (جمال) فى حزم:

- قم بهذا فوراً، وابحث عن كل معارف وأصدقاء وأصدقاء وزملاء القتيل، وأخرج من بينهم ضعاف البنية، فالقاتل الذى مزّق الاوصال على هذا النحو، يتمتع ببنية قوية حتماً.

اتسعت ابتسامة (سامى)، وهو يقول:

- الواقع يا سيادة المفتش أن العمل معك هو خبرة كبيرة، فأنت تجعل كل الجرائم تبدو عادية، قابلة للحل.

التقط (جمال) نفساً عميقاً، وقال:

- إنها كذلك.

ثم أضاف، وهو يبتعد:

- فى عملنا هذا، لا تتوقع أن تجد إلا الجرائم المعتادة، أما تلك الجرائم الغامضة العجيبة، فاتركها لخيال الروائيين، وكتّاب السيناريو فى السينما.

غمغم (سامى) فى إعجاب:

- صدقت.

فى نفس اللحظة، التى نطق فيها كلمته، كان)طارق بشير) يلتقط زجاجة مياه غازية مثلجة، من صندوق بدائى، يحوى قطع كبيرة من الثلج،

ثم يتجه إلى شرفة منزله الصغير الجديد، فى تلك المدينة الحديثة، وجلس أمام حديقته، التى يعشق الاهتمام بها، مستمتعاً بالهواء المنعش، واخذ يحتسى جرعات المياه الغازية فى بطء، ويتأمل النجوم، التى يندر أو يستحيل أن ترصدها فى المدن الكبيرة...

كان يعشق ذلك المنزل على الرغم من كونه فى بقعة شبه منعزلة، من تلك المدينة الجديدة، التى لم تعتمر بالسكان بعد، وكان يشعر بارتياح شديد، عندما يقضى فيه يومى إجازته الأسبوعية، بعد العمل الشاق والمستمر، طوال الأيام الخمسة الأخرى المرهقة ...

كان مبعث ارتياحه، إلى جانب الهدوء الشديد، هو بعده عن كل وسائل التكنولوجيا الحديثة، خلال يومى الإجازة ...

وهذا ما حرص عليه تماماً ...

لم يضف إلى منزل المدينة الجديدة جهاز تلفاز، أو هاتف، أو شبكة انترنت ...أو حتى مبرد مياه...

شعوره بالارتياح كان يكتمل، وهو يحيا حياة طبيعية، بدائية، تعيده إلى احضان الطبيعة الأم،

بكل بساطتها وعفويتها ...

أغلق عينيه فى استمتاع، وهو يستنشق هواء الليل الرطب، و ...

وفجأة، سمع تلك الفرقعة...

فرقعة خافتة مكتومة، انبعثت بعدها رائحة عجيبة فى الهواء، أشبه برائحة أسلاك كهربية تحترق، ففتح عينيه فى سرعة، ولمح لوهلة ذلك الضوء، الذى انبعث لجزء من الثانية، ثم تلاشى تماماً؛ ليعود الهدوء إلى المكان مرة اخرى...

وفى دهشة، رفع عينيه، محاولاً أن يستشف ما حدث، ولكن كل شئ من حوله كان شديد الهدوء، وتلك الرائحة كانت تتلاشى فى سرعة، مع حركة الهواء، فغمغم، وهو يعود للاسترخاء على مقعده:

- سأطلب أحد الفنيين غداً؛ لفحص كابلات الكهرباء.

ومط شفتيه، وهو يرتشف رشفة ثانية، مكملاً:

- إنهم لا يصنعون أى شئ جيد هذه الايام.

قالها، ثم استرخى أكثر فى مقعده، وعاد

يستنشق هواء الليل المنعش...

فقد كانت ليلة جميلة، لن يسمح لأى شئ بإفسادها...

أى شئ...

على الإطلق.

• • •

تمت بحمد الله

القاهرة فى 2011/9/17م

الفهرس

الفصل الأول 6

الفصل الثاني 14

الفصل الثالث 21

الفصل الرابع 29

الفصل الخامس 39

الفصل السادس 48

الفصل السابع 57

الفصل الثامن 65

الفصل التاسع 72

الفصل العاشر 81

الفصل الحادي عشر 93

الفصل الثاني عشر 102

الفصل الثالث عشر 113

الفصل الرابع عشر 124

الفصل الخامس عشر 135

الفصل السادس 144

الفصل السابع 155

الفصل الثامن 161

منتديات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com